الاشباح والأمكنة

رواية

ذياب فهد الطائي

ملاحظة :تمت طباعة الرواية عام 2015 بواسطة دار أمل الجديدة في دمشق

الفصل الاول

الصمت الغامض يطبق على دجلة وهي تنساب تحت غلالة رقيقة من ضباب الفجر الربيعي، فيما يملأ الماء الضفتين ويبدو لونه الرصاصي الداكن وكأنه يتنفس بعمق فتصطدم موجات وقورة ببعضها ثم تنسحب الى وسط النهر وكأنها تقدم اعتذارا هامسا، صفحة الماء لا يمكن ان يتبين ما تحتها فيما تتقدم ريح جنوبية شرقية رطبة تزيد من كثافة الضباب الذي بدا له مرحا وهو يلامس الوجه الصقيل للنهر بشيء من المودة والحميمية.

ملأت الرطوبة المشوبة بدرجة حرارة منخفضة رئتيه فأحس برجفة خفيفة دفعته لأن يزرر سترته العسكرية السميكة ، كان يريد ان يستوعب المنظر كله ليحتفظ بالتفاصيل الأثيرة لديه والتي رافقته منذ أيام الطفولة ألأولى فعلى مقربة من هذا الجرف المرتفع وفي الدار نفسها ولد وهنا كّون صداقاته الأولى وتعلم السباحة في أشهر الصيف الطويلة وتعرض لشكوى أبيه المستمرة من إنه لا يفكر بمساعدته ويقضي وقته في النهر، لقد تعرف بدقة متناهية على كل متر من النهر وخبر تقلباته ..... فصول قناعته الهادئة وأيام غضبه العنيف الصاخب وساعات فورانه المدمر، كانت المياه التي تندفع عبر الضفة الغبيه تكتسح مساحات واسعة من البساتين وتدمر جهود المزارعين طوال فصل الخريف ،أما الضفة الشرقية فكانت مياهها تتطاول بحرقة لتصل الأرض ولكنها تصطدم بالحاجز الترابي المرتفع فتتراجع مندفعة الى الضفة الأخرى و في النهر ضيّع المدرسة و ترك الصخب وتشدد المعلمين والانتظام في الدراسة الى الحرية المطلقة ، يدفن رأسه في المياه ويتقدم مغمض العينين الى الضفة الغربية وهو

يشعر انه مسترخ على نحو ساحر تداعب مشاعره نشوة تتملكه فينسى كل ما حوله ويغرق في عزلة مطلقة وكأنه طائر وحيد يسمع اندفاع

الماء فوق رأسه متجاوزا كتفيه ليغطي الظهر العاري ،هنا بيته الحقيقي حيث لا يشعر بالخوف من نظرات أبيه القاسية ولا بالإحباط من ملاحظات معلميه السلبية دائما ، يشعر بانه السيد حين يتخلف الأولاد ورائه.

أغمض عينيه باستسلام كأنه يؤدي طقسا دينيا وتنفس بعمق فملأت رئتيه شحنة من الرطوبة ، كانت عتمة الليل لاتزال تلف الشاطئ الأخر حيث تتكاثف أشجار النخيل المزروعة حديثا وعشرات من أشجار الليمون والبرتقال التي كانت مصفوفة بتنسيق وعناية كبيرتين و حين فتح عينيه ثانية كانت العتمة في الجانب الآخر شديدة بحيث بدت الأشجار كتلة واحدة سوداء وبدت دجلة مغيظة وتكاثفت دفقات الضباب ولاحت صفحة الماء كأنها صفيح صدئ.

كان صغيرا حينما حاول أن يتشبث بالطين في قاع النهر، والنسوة اللواتي كنّ يغسلن الصحون والفتيات اللواتي كنّ يمزحن برشق الماء والصبية الآخرون الذين يتقافزون مكركرين ، جاءته أصواتهم كتلة صماء كأنها طنين ثقيل ، كان يريد ان يعرف كيف ستستقبل أمه (حالة) فقدانه فيما لو انه حاول أن يجرب هل بإمكانه ان يعيش تحت الماء كسمكة تسبح بحرية وتنتقل الى أبعاد سحيقة ومظلمة ، ربما ستعشقه حورية هناك وقد تكون ابنة الملك، لن يذهب الى المدرسة ولن يعمل في المزرعة ، ربما يلعب الكرة أو يركض تحت المطر عاريا ..... لا فهناك لن يكون المطر ، فجأة جاءه صوت أمه ، كان واضحا تدق نبرات حروف نداءاتها أذنيه، حروف مفجوعة جعلته يترك القاع الطيني ويطفو الى السطح ليتلقى ضربة موجعة على وجهه ، ترنح في الماء ثم استقام ليعبر الى الضفة الأخرى.

جلس القرفصاءعلى العشب الندي ووضع رأسه بين ركبتيه ، طنت حشرة فقدت معالم طريقها عند أذنه ولكنه لم يطردها فقد كان صوت طنينها الأجوف جزءا من إحساسه العميق بالمكان الذي ينتمي اليه .

سيذهب غدا الى معسكر (الغزلاني) لن تستمر فترة الإعداد أكثر من بضعة أيام ومن ثم يلتحق بإحدى الوحدات على الجبهة، لم يحدثه أبوه وهو يحزم متاعه واكتفى بالنظر اليه بعينيه الكابيتين وعلى ملامحه كانت تتشكل تعابير حزن عميق ، كان يتحرك ببطء فيما ينسكب ضوء المصباح النفطي ألأصفر على تقاطيعه المتغضنة بأ جواء كئيبة ربما بسبب الوحدة الاختيارية التي فرضها على نفسه منذ أكثر من ست سنوات بعد إن توفيت زوجته وتركتهما وحيدين في البيت الطيني على دجلة .

كانت أمه تتمتع بصحة جيدة ولم تشكو يوما من مرض ما وفي حياتها اليومية كانت تتولى أمور البيت والعناية بحضيرة الدجاج وبالعنزات اللواتي كانت تقوم بحلبهن ، وبغسل الخضار التي يقوم زوجها بقطعها وتوزيعها على شكل حزم صغيرة كل نوع على حده ليأخذها في الصباح الباكر الى السوق بالعربة الخشبية الي يجرها حمار عجوز , ولكنها في مساء صيفي ، وكانوا يتناولون الشاي قالت انها تشعر بتوعك وبارتفاع درجة الحرارة ، في الليل اشتد عليها ألم غامض وفي ظهيرة اليوم التالي توفيت في مستشفى مدينة الموصل وتم دفنها في مقبرة النبي يونس.

بد أ مطر ناعم يندفع برشقات متقطعة ولكنها متلاحقة مرسلا حفيفا مكتوما فيما بدأت تتحرك موجات صغيرة على سطح الماء يحجبها ظل الرشقات أحيانا وتنعدم رؤية الغابات المعتمة في الضفة الغربية.

تناهى اليه صوت أبيه المتعب من أثر الدخان الرديء يناديه، نهض بتثاقل.

رسمت مجموعة من ألأوز العراقي لوحة جميلة فوق مجرى النهر متجهة الى الجنوب ، في المقدمة أ حد الطيور يقود المجموعة وكأنه على دراية بالطريق ، كان الطيران بطيئا بعض الشيء وبدا ان المجموعة تستمتع بمنظر الماء الرصاصي المنساب تحتها عبر بساتين وأراض زراعية وسكون عميق اصبح . مشبعا بحفيف المطر الربيعي العابث

: الشاي جاهز

قال أبوه بإيجاز وهو يهيئ سيكارة الصباح الأولى

فتح صندوقا صغيرا مركونا عند الحائط واخرج لفافة من ورق الجرائد , سحب رغيفين وقطعة جبن محلي كانت امه تصنعه في البيت ولكنهما اعتادا على شرائه من السوق بعد وفاتها .

كان ابوه يتجنب الحديث على الرغم من ان لديه الكثير ولكن ألأمر كله متعلق بمساحة الهموم التي سيعيش في خضمها بعد رحيله ولهذا انطوى على نفسه ليجنبه قساوة المشاركة هو الذاهب الى المجهول.

بدا كل شيء وقد أصابه بلل من رشقات المطر واختبأت العصافير الثرثارة تترقب بصبر ان تعود ثانية الى اللعب العابث فيما فتح برق خاطف وجه السماء الذي أطل بشيء من الإستغراب الخجول ، واختفى تلفّه سحب ضبابية داكنة.

: كيف ستتدبر أمرك ؟

نظر اليه أبوه بتعاطف

: لاتشغل نفسك سأذهب يوميا الى السوق وفي المساء سأهيئ طعامي

منذ ان توفيت أمه اعتادا على نمط ثابت من الحياة اليومية , يوقظه أبوه فجرا ليقوم بإعداد الشاي فيما يتوجه هو للصلاة ويقرأ بعضا من القرآن ، يقضم أبوه قطعة الخبز بتؤدة ويرتشف الشاي دون ان يتحدث ، يقومان سوية الى الحقل لتحضير حزم الخضروات وبعد غسلها يصفانها على العربة الخشبية ويربطاها الى الحمار الذي رافقهما حياة العزلة والصمت، يذهب هو الى السوق فيما يقوم أبوه بمتابعة أعمال الحقل وحضيرة الدجاج وحلب العنزات والتدخين.

كان الحقل الذي يشمل دارا مبنية من ألآجر و الطين ، على كتف دجلة المرتفع عن النهر ، المنطقة منعزلة تقريبا فهي على مبعدة ثلاثة كيلومترات من المدينة والوصول اليها يمر بأراض خالية وطريق ترابي غير مطروق عادة ، فالكتف لا تشكّل المزارع على امتداده قرية بالمعنى الإداري، فعدا مزرعتهم المخصصة فعلا للزراعة والتي يعتمدون عليها في معيشتهم فإن المزارع الأخرى مخصصة للراحة ومالكيها من الموسرين الجدد الذين استطاعوا عبر وسائل شتى جمع الكثير من المال، وعادة ما تدب الحياة فيها بعد العاشرة ليلا حين يرتفع غناء غجري وموسيقى ذات رنين بدائي يطغي عليه صدى (الطبلة) لضبط إيقاع

الراقصة ، وحتى الفلاحون المكلفون بهذه المزارع لا يحضرون للعناية بها إلا ما ندر ، ويتركز اهتمامهم عادة بتنظيف البيوت وتهيئة التنور للشواء .

قبل عشر سنوات لم يكن على الذراع غير مزرعتهم وفي الليل يصعب الخروج الى ما وراء السياج الطيني للمزرعة بسبب قطعان بنات آوى التي تبحث عن طعام او بعض الذئاب التي لا يعرف احد من أين تأتي

قال أبوه : ارجو ان لا تنسى شيئا من لوازمك

تحسس الحقيبة البلاستيكية الصغيرة

: لا ... لقد أخذت كل ما أحتاجه

يشرف الكتف على مجرى دجلة ولكنه يرتفع عنه بحوالي الستة أمتار، وفي فصل الصيف يتوافد الصبية من مدينة الموصل والقرى المجاورة للقفز الى النهر محدثين جلبة بهيجة ويغدو العالم بالنسبة لهم محصورا بين الكتف والنهر مستغلين الأوضاع الممكنة كلها في القفز الى النهر ، والتي عادة ما يشاهدوها على التلفاز عند عرض برامج السباحة ، بعضهم يهبط ضاما يديه الى جسده وقدماه متلاصقتين ، فيما البعض يفرد يديه مطلقا صرخات مهللة وهو يهبط الى النهر فرحا برشاش الماء المتناثر بصخب بكل الاتجاهات.

كان الصباح ينشر ضياء شاحبا بسبب الضباب ورشقات المطر ، أحس بقلق ممض يتسلل الى مشاعره وهو يهم بالمغادرة الى المعسكر تاركا الجو المفعم بالحميمية ، بدأ ندم عكر يعصره ببطء ولكن بإصرار لأنه سيترك أباه وحيدا

صافح وجهه رشا ش المطر فحاول ان يتدارى بكفه العارية ولكن الهواء الشمالي البارد جمد أصابعه فسارع الى دسها في جيب بنطاله المبلل وشعر ان السكون المتماهي في شحوب الصباح الضبابي يشعره بكآبة جعلته يتباطآ في سيره .

كان الباص المترنح قد توقف عنده ، تمسك بالحديد البارد ليصعد ثم ارتمى على كرسي تمزق غطاؤه الجلدي، الركاب يغالبون النعاس فيما يرتفع صوت أجش بأغنية عاطفية جنوبية ، على الجوانب كانت صور لنساء بدا واضحا إنهن ممثلات او عارضات لأصناف المودة ،

صعد رجل يرتدي قفطانا وهو يبسمل بصوت مسموع وقبل ان يجلس صرخ باستنكار،

:العياذ بالله ، بدلا من الاستفتاح بكلام الله تسمعون المسلمين هذا الفحش المحاط بصور تخدش الحياء وكأنكم في ملهى ليلي متنقل.

ولكن ياشيخ محمود كيف عرفت ان هذا الباص يشبه ملهى ليلي متنقل ؟

إنتبه الركاب وقال السائق،

: بلا مواعظ ستصل الى الجامع قريبا

تحسس الكتاب الذي أعطوه اياه في دائرة التجنيد وارسل نظرة غائمة الى واجهات المباني، توقف المطر وبدأت سحب الضباب تتمدد فبانت اوراق الأشجار .لامعة ، وكان لخرير المياه عند امتداد الرصيف جلبة مكتومة

عند بوابة المعسكر كان يتجمع بضعة مجندين يقفون قلقين بانتظار ان يسمح لهم بالدخول لاستكمال إجراءات التحاقهم بوحدات التدريب .

وقف في غرفة الحراسة عسكري بشوارب كثة وعينين حادتين ، فتح الشباك المطل على الباحة الخارجية وبعد ان شمل الجميع بنظرة متوعدة اثارت الانفعال القلق في كل الوجوه التي تطلعت اليه بشيء من الترقب ، ولكن من الواضح انه لم يكن يهتم بالعيون التي ترقبه من كل جانب ، بسط ورقة كانت مطوية بين يديه وقال

: من يسمع اسمه يدخل من بوابة الحراسة

بدأ يتلو الأسماء بصوت فيه رنة سخرية

:سمير قاسم حسن

تقدم مرتبكا وبادر الجندي المكلف بالحراسة بدفعه الى الداخل.

: بهؤلاء سنحارب الجيش ألأمريكي

حرك العريف شواربه معبرا عن ضيقه وتوقف عن القراءة كمن يتأكد من المكتوب أمامه .

:فوزي فائق الحمداني

: نعم

كان الصوت خافتا ولكنه أجوفا بلا رنين

:انت مهندس ؟

:نعم ... من انكلترا

:مهندس ماذا؟

:ميكانيك

: بأي فرع ؟

:السيارات

: وهل اشتغلت في لندن ؟

: لا , ولكني تدربت لمدة سنة في شركة(ليلاند)

:ولكن العراق لايمتلك مثل هذه السيارات

:في بغداد مئات منها ، سيارات (المصلحة) الحمراء بطابقين

ولكن على أي طابق تدربت ؟:

كان يحاول ان يكون مرحا، فكر فوزي

:لا عليك ، اعرف إن الميكانيك ابو عبد الله يمارس شطارته على كل السيارات القادمة من روسيا حتى أمريكا .

: وانا كذلك

:عظيم سوف يفرح النقيب حكمت فسيارته عاطلة منذ اسبوع

لم يرد ولكزه شاب دقيق التقاطيع يقف الى جانبه وأسرّ اليه

:انت الآن على اول الطريق ، البداية بالاتجاه ألأقرب

لم يعلق

:اشرف حميد

:نعم

:وانت خريج ماذا؟

:آداب من بغداد

:ولماذا ليس من الموصل ، نحن ايضا معروفون بألأدب؟

:قسمه ونصيب

:حسنا أرجو ان تكون مؤدبا في المعسكر

قاعة النوم كانت مستطيلا، على الجانبين أسرة حديدية وفي الوسط ممر بعرض متر والأرضية مكسوة بطبقة من السمنت وعلى الجوانب شبابيك زجاجية عليها بقايا أصباغ مما تنثرة فرشاة صباغ مبتدئ لم يهتم أحد بإزالتها ، في نهاية القاعة مرافق ومغا سل معظمها قد تهشم أجزاء منه والمتبقي مكسو بطبقة لزجة تميل الى الاصفرار.

في الخارج كانت ضوضاء خطى العائدين من التدريب الصباحي تحدث جلبة مربكة ولدت لديه شعورا بالقلق.

بدأوا بقياس التجهيزات ، عاد العسكري ذا الشوارب الكثة يسد الباب بجسمه الضخم المشدود كحزمة خيزران يابس.

:أمامكم عشر دقائق لتكونوا جاهزين لمحاضرة التوجيه السياسي وبعدها تتلقوا التعليمات بشأن التدريبات ، عشر دقائق تنتهي بسماع الصافرة ،

:مفهوم ؟

قالها بلهجة حادة وحا سمة واستدار خارجا.

كانت الأيام تمر مسرعة وصعوبة التدريبات في السا حة الترابية التي تحولت بفضل الأمطار المستمرة الى مستنقع طيني لزج ،لم تترك لنا مجالا للتفكير وربما هذا بالضبط ما خفف من وطأة المعاناة ، في الحقيقة لم تكن التدريبات تتسم بطابع قتالي حديث ، هذا ماقاله فوزي الذي كان يركن الى القراءة بكتاب باللغة الأنكليزية قبل النوم ويتجنب الأختلاط بالآخرين عدا اشرف.

في الحرب الأيرانية قتل اخي في(في نهر جاسم) وكان قد حصل على : الدكتوراه بالفلسفة ، لم يكن جنديا ، كان في الجيش الشعبي وقد اخذوه عنوة ، تصور انه مات بأرض لم يسمع بها.

كان يحدث فوزي بصوت هامس وهو يجلس على حافة سريره الحد يدي ، التفت نحوي

:اعتقد اني رايتك ؟

:ربما

كنت أغالب النعاس

:هل انت طالب؟

:كلا ... أنا أعمل ببيع الخضروات في السوق

:نعم تذكرتك

ثم غمز بعينه بتواطئ واردف

:حولك وباستمرار سرب من القطى

:من الطبيعي ان يكون معظم من في السوق، لاسيما في الصباح ، من الفتيات

كانت التمارين حركات حمقاء ربما تصلح لحرب بدائية كما شرحها لنا فوزي، كان شابا في الخامسة والعشرين في عينيه همّا يشرق احيانا بحزن يرسل إيحاءات بوجود ما يريد البوح به ولكنه يتردد بتحفظ الخائف ، كان يؤدي التمارين بآلية ولكن باتقان متجنبا نظرات العريف المدرب لتحاشي شتائمه البذيئة والتي عادة لامبرر لها،

تظل عيناه تغيمان حينما نتجمّع مساء للاستماع الى محاضرة التوجيه السياسي ويبدو متضايقا حينما يردد المسؤول الحزبي أهمية الأنتصار بالحرب التي تنوي امريكا شنها على العراق بدعم من ألإمبريالية العالمية وجهاز الموساد ، سالت فوزي ولكن ماهو جهاز الموساد؟

حدق مباشرة في عيني وقال:

بالتأكيد انه ليس جهاز العروس

تضايقت بعض الشيء فقد ادركت انه يسخر مني

:لا تزعل انا مهموم يا عزيزي ، هو المخابرات ألإسرائيلية

اندفع الدم حارا الى وجهي وسرت في كياني موجة خوف ، ولكن يقينا خامرني ان فوزي الحمداني ، موضع ثقة.

أما اشرف خريج الآداب فعلى العكس ، كان يميل الى الهذر والمداعبة ولا يترك مناسبة دون ان يعلق عليها بشكل مرح كما لم يكن يخفي كراهيته للمدرب .ويختلق النكات حول تصرفاته

يأخذ وجهه أحيانا طابع الكياسة التي لا تخلو من لؤم فتتصلب عضلات وجهه وتبدو عليه ملامح قاسية.

بخلاف اليومين الأولين لوجودنا في المعسكر حيث كانت لقاءات الاستراحة في المطعم تتسم ببهجة مرحة ،كان وجوما مشوبا بالضيق يرين على الحاضرين جراء الإرهاق ولهذا اختفت التعليقات التي تعكس روح الشباب وأصبحت حركتهم ملولة وفي نظراتهم تأملات عميقة وكأنهم يستشرفون مستقبلا مجهولا

تثقل هواجسه على أرواحهم بقوة وحينما تعبر فوقهم بعض أسراب الطائرات الأمريكية يعلق فوزي بهمس : لن تكون الجبهة بعيدة

ويرد اشرف وهو يغمز متلائما : لا .... ستكون هناك جبهة عريضة

وأتساءل : اين ؟

فيقول بجدية وبفخامة : في منطقة شنّله واعبر

مجموعتنا تنقسم الى ثلاث فئات الأولى ممن لا يملكون ثمن الإمتيازات وهؤلاء هم ألأغلبية ولهذا ظلوا في المعسكر طوال مدة التدريب الأساس ولم يسمح لهم بالنزول في أية اجازة لزيارة ذويهم وهم على العموم ألأكثر صمتا وفي عيونهم دائما نظرة شك ورغبة في العزلة ... وبالطبع أنا منهم

اما الفئة الثانية فهم الذين يملكون القدرة على شراء الإمتيازات ومنها الخروج من المعسكر مساء والعودة في الصباح الباكر لحضور عملية التعداد وهذه المجموعة اكثر ثقة بالنفس ويتصرفون بشيء من التعالي ، وبحكم خروجهم اليومي فهم لايملكون علاقات وطيدة مع الآخرين

والفئة الثالثة وهي عموما ألأصغر عددا , من الذين يتعمدون الهروب ليلا كلما سنحت لهم الفرصة وهم يتمتعون بروح غير منضبطة وألاميل للدعابة والأكثر حضورا اذ يقدمون بين آونة واخرى الحلوى وبعض المكسرات في الليالي التي يمتنع عليهم سبل الهرب ويستعيضون عنه بخلق جو من المرح والغناء نضطر معه على الرغم من الإرهاق الى الأنصات، كنت اشعر بالراحة وانا مندس في الفراش حين يغني جرجيس (كم يردلي) بصوت ثابت ورخيم ولكن على نحو لايخرج من باب(الثكنة) ، وحين يردد (سمرة قتلتيني) كنت أحس اني أعود الى السوق والى النظرات الحييّة للصبايا وهن يقلبن الخضرة وانا اقلب الف فكرة برأسي المضطرب، أفكار تخلقها أحلام المراهقة وغموضها بفطرية عفوية ، فيما ينساب صوت الغناء بشجى تعمقه رنة حزن خفية ليخدر مشاعري فأغفو على التعب وكأني أغوص في مغارات مجهولة تسلب مني كل ماتبقى في الذاكرة.

تم توزيعنا على الوحدات ونقل فوزي الى ورشة اصلاح العجلات في ذات المعسكر، وبالطبع فان مثل هذا الموقع يتمناه الجميع أما انا واشرف فقد تم

تنسيبنا الى إحدى وحدات المشاة قاطع العمليات الشمالية وتم منحنا اجازة قصيرة لمدة ثمان واربعين ساعة.

كان الربيع قد كسى التلال والوديان في (الموصل) خضرة بهيجة فتبدو وكأنها تبتسم بشئ من المرح العابث فيما تتمايل ازهار شقا ئق النعمان الحمراء الرقيقة بغنج وهي تلامس ورود البابونك البيضاء المبتسمة كعيون الأطفال وهم يتأرجحون في اراجيح العيد فيما تلتمع الحشائش المبتلة من زخات المطر من سحب عابرة أو بسبب الندى الذي يترك ايضا قطرات لؤلؤية تتشبث بالأوراق المتدلية حتى ترتفع الشمس فتتدحرج الهوينا الى الأسفل، وعلى الشجيرات المتباعدة تختبئ عصافير فرحة بالربيع الجديد.

شعر وهو يجتاز شوارع المدينة بسكون غريب يملأ جوانحه بعد الأيام المجهدة في المعسكر والتي دفعته الى الإحساس بأن هذا العالم الصغير يتحرك مستقلا بذاته والمجندون يتصرفون بآلية وكأنهم مجموعة منفصلة عن المجمتمع الذي جاؤوا منه فقد بدا وكأنهم قد نسوا انهم لا زالوا يتمتعون بقدر محدود من الحرية ، يسارعون منذ الفجر الى المطعم الصغير ليتناولوا كوبا من الشاي وقليلا من الخبز الجاف ومن ثم يتوجهون بآلية الى ساحة التدريب.

في الطريق النازل من الشارع العام الى كتف دجلة كانت المنطقة ورشة عمل فهنا وهناك تتكدس مواد البناء وتتصاعد ضجة العمال الذين يتحركون بعصبية وهم يقيمون جدارا او يحفرون أسس بناء جديد ،فيما تتحرك سيارات النقل مثيرة ضوضاء تملأ المكان و تترك آثارا على الطريق الطيني الذي بدت واضحة عليه التحولات الجديدة ،أحس إن الناس يهربون من المدينة على عجل الى منطقة جديدة ربما لم تؤشر بعد على خرائط الحرب القادمة بالتأكيد لن تكون قرية مستقلة لأن القرى يسكنها اناس يرتبطون بعلاقات عائلية وقد يكونوا من (عشيرة) واحدة اما هذه المنطقة الجديدة فستكون حيا آخرا، إمتدادا للمدينة وسكانها من منحدرات مختلفة ففيهم الضابط الذي منح مكافآت متلاحقة ورجل ألأمن الذي جمع ثروة من التوسط لإطلاق سراح بعض المعتقلين الذين ربما هو من وشى بهم ، وكذلك بعض الجنود من سائقي السيارات الذين دخلوا الكويت

لنقل (الموجودات) الكويتية مع اللجان المختلفة التي كلفت في حينة بالمهمة لصالح الدولة والتي أشرف عليها الحاكم العام العراقي للكويت ، عرف منهم عبد المجيد الذي كان يعمل في السوق عاملا في مقهى الحاج أبو نزار ثم اختفى لأكثر من سنتين وعاد ليشتري مطعما قديما ويعيد ترميمه ولكن أحدا لايعرف من أين جاء بالثروة !! كان كثير الحركة تدور عيناه بخبث وكأنه يحاول ان يخفي عن محدثه مايدور في ذهنه من افكار.

لحظ ان الذين يوجهون العمال ويتخذون هيئة أ صحاب الملك من الشباب وربما لم يتجاوز اكبرهم سن ألأربعين وهذا مغاير لما كان يراه وهو يدفع بعربته الى السوق فقد كان المالك عادة رجل كبير في السن يوجه العمال بتؤدة ويتكلم في الغالب مع المقاول او مع (أسطى) البناء بهدوء.

على العموم لم تكن حركة البناء تدلل على ان هناك اية موافقات رسمية اذ كانت تجري بشكل عشوائي فلم تكن المسافات محكومة باية ضوابط ولهذا بدت الأبنية على خط متعرج كما انها مختلفة بشكل صارخ فبعضها اقرب الى الفلل العصرية في حين بدت الأخرى كأكواخ بسيطة مما في المزارع لقضاء العطلات.

شاهد بضعة أرانب خائفة تهرب بكل الاتجاهات تبحث عن ملجأ آمن بعد ان كشفت مكائن حفر الأسس مخابئها ، على الطريق كان أرنبا رماديا يتطلع بلا مبالاة كأنه يئس من الحياة وقررأن يستسلم بهدوء ، مد يده اليه بحذر ولكنه لم يبدي أية ردة فعل خائفة كما هي الأرانب المذعورة دائما ، كان الأرنب يتطلع اليه بعينين بدا انهما مغرورقتان بالدمع.

:سنكون أصدقاء

مسح على ظهره وحمله الى البيت

بحث عن أبيه في الدار ولكنه لم يكن في غرفته يدخن ، انتقل الى الملحق الطيني الذي بناه بامتداد الدار الأصلية ، غرفة واسعة في نهايتها ، عند الشباك ألأزرق ، سرير حديدي وفوقه كانت مرتبة من الصوف مطوية بعناية ولكنه فوجئ بحمامة تنفلت بسرعة وعلى افريز الشباك كانت بيضة وحيده موضوعة فوق حزمة من القش اجتهدت الحمامة بحياكتها عشا لصغيرها ،

في نهاية المزرعة كان أبوه يجلس مجهدا عيناه ساكنتان لا تعبران عن أي شيء وهو يرنو نحو النهر فيما عبرت طيور مهاجرة نحو الجنوب ، بدا انه لم ينتبه اليه.

:السلام عليكم

التفت ابوه ، كان التغضن في وجهه ألأبيض الشاحب قد حفر أخاديد عميقة وبدت لحيته أقرب الى اللون االرصاصي المعتم ،

:اهلا .... هل انتهى التدريب ؟

:نعم وعندي إجازة ليومين

:وبعدها

:سألتحق بوحدة مشاة

لم يسأله اين فالجيش سيحارب في كل مكان لأن ألأمريكان سيدخلون من ثلاث جبهات كما قال احد العسكريين المصريين في اذاعة (مونت كارلو)

:هل أساعدك ؟

:لا لقد انتهيت، هل ترغب ببعض الشاي

شكرا ، لقد شربت في المعسكر مايكفي حتى الشهر القادم ! الشاي هو الوحيد : المتوفر دائما

كان صوت مضخة الماء يصدر أزيزا مستمرا على نحو أشعره بالضيق وبالتوتر لأنهم مضطرون الى تشغيلها طوال النهار بسبب انخفاض طاقتها , لم يستطيعا شراء مضخة أكبر فألأسعار ارتفعت ومردود مبيعات الخضرة والبيض ولبن . الماعز لاتكفي ولهذا كان دائما بدون متطلبات محاولا ان يخفف عن ابيه

حين بدأ المساء، هطل مطر غزير على الأرض الندية المشبعة بالماء ، وسرعان ما تكونت برك صغيرة ، في الغرفة الحجرية الكبيرة اشعل ابوه حطبا جافا في (المنقلة) الحديدية انبعث عنه دخان كثيف واصبح الهواء ثقيلا منهكا ولكن

البرد الذي شمل الجزء الغربي من(الموصل)الممتد على دجلة والمفتوح على الجزيرة لم يترك لهما خيار فتح الباب واكتفيا بفتح الكوة الصغيرة في أعلى الجدار، اند فع الدخان الى الخارج كأنه يخرج من قمقم مسحور.

أين ستكون خدمتك ؟

:في الفرقة 16لواء المشاة الثالث

:اعني هل في الموصل؟

:اعتقد انها في موقع قريب لأنها في قاطع الموصل كما اخبروني

أجاب وهو يستشعر الراحة فقد انتهت التدريبات الشاقة والزحف في برك الوحل ، انه ألان جنديا يمكنه ان يلبس الزي العسكري نظيفا وان يصبغ الحذاء ويحاذر من تلوثه بالطين في الطريق الى المعسكر ، بدأ الهواء يصفو قليلا، كان يحلم , بالعودة ثانية الى أبيه

:أعرف ان الوضع سيكون قاسيا عليك ولكن ادعو الله ان تنتهي الحرب بسرعة واعود لمساعدتك

:ستنتهي بسرعة

قال ذلك وهو يتطلع الى سحابة من الدخان كانت تتلوى وهي تخرج لتتبدد، كان عرّافا يستشرف رؤيا تشخص امامه.

تابع : ان الله لاينسى عباده! ، نصف المنتوج ابيعه الآن في المزرعة لعمال البناء والساكنين الجدد والنصف ألاخر أبيعه بالجملة لمتعهد يعمل مع الجيش ، العمل يشغلني عن التفكير ويوم الجمعة يمدني بالقوة بعد الصلاة في الجامع.

صمت وهو يتطلع نحوه , كانت اجفانه تتثاقل , اسند ظهره الى الحائط ومدد رجليه فأسرع لوضع الوسادة وراء ظهره

قال : وانت هل بدأت بالصلاة ؟

:لا ..... ربما في المعسكرٍ سأفعل ذلك

يهديك الله:

كان صوته متعبا

قال سمير : سأتركك لتنام وسأذهب الى غرفتي وغدا لدينا حديث طويل وستستمع الي وانا اعمل فقد اشتقت للأرض والى رائحة الخضار واصوات الدجاج ، لقد حصلت على ارنب , كان واقفا على الطريق وكأنه بانتظاري ،هل تدري انه اعطاني فكرة تجارية , لماذا لا نربي الأرانب ،ان تكاثرها سريع ولها سوق في المدينة ؟

لننم الآن وغدا سنتحدث طويل:

ابتسمت معطيا وجهي ،انطباعا لامباليا وساذجا وأنا اسحب الغطاء لأغطي صدري .

الفصل الثاني

باصات وسيارات(الميني باص) الخاصة بنقل الركاب تدخل الان الى ما يقرب من ثلاثة أرباع الطريق الى الكتف ، فالمنطقة تشهد عمرانا سريعا وعلى طول الطريق كان هنالك صبية يتدافعون ويتراكضون بضوضاء وصخب في طريقهم الى المدارس فيما كانت بضع عربات لباعة أطعمة تأخذ مكانها عند تجمعات العمال الذين ينتظرون دورهم للذهاب الى العمل.

قال أشرف: واذا فقد جئت في الموعد ، هذه علامة جيدة

كان قد اتفق معه على أن يذهبا سوية الى المعسكر للالتحاق بوحدتهما ، كان أشرف يساعد أبيه في خدمة الزبائن في المطعم الصغير الذي يملكه.

لقد ورث أبي هذا المطعم عن أبيه ولم يكن في هذا الشارع غيره وهو الآن : يتمتع بشهرة واسعة بعض زبائننا يواظبون على شراء (الباجة) كل يوم جمعة منذ سنوات طويلة وبعض الموظفين يأتون مبكرا ، ربما قبل الخامسة صباحا ليفطروا، أبي ينهي العمل في التاسعة صباحا، قد تتاح لنا فرصة أخرى لتتذوق باجة ألحدباء .

قلت مشاكسا: لن أحتاج الى برهان إنك موصلي

ضحك بمودة وقال : سنكون أصدقاء

الربيع يغادر الموصل مبكرا ، فعلى طول الطريق الى المعسكر كانت التلال تشهد استرخاء أزهار شقائق النعمان الحمراء على سويقاتها الرقيقة وكأنها تتطلع الى ألأرض باستحياء بعد إن كانت تقف بدلال فاتحة قلبها لندى الصباح، وبامتداد تموجات ألأرض كانت الخضرة الزاهية تتحول ببطء الى لون أشهب، فيما كانت الشمس تتسلق الفضاء بقوة مؤكدة سلطة لا حدود لها على الأرض ، كان والده يكرر وهو يرفع بعض الأعشاب والعوا لق من السواقي الصغيرة ليسهل تدفق المياه ..... (الشمس هي أصل الحياة)

حين هبط في أعماق دجلة متشبثا بالطين باذلا جهده كي لا يرتفع الى السطح كانت الظلمة فضاء ضيقا ومرعبا، ولكنه لم يخف تذكر إنه لن يستطيع أن يعيش مع (الجنية عروس الماء) اذا أخذته معها، لأنه لن يكون هناك شمس تتخفى

وراء السحب ثم تظهر قوية لتمد الحياة بالديمومة، لن يتعرض للموت في الأعماق والظلمة ، وبدون الشمس ، ربما سيتجمد ، وقد يعود كأهل الكهف الذين تحدث عنهم معلم الدين ، سيعود بعد سنين طويلة، لن يجد أمه او أبيه ولا حتى معلم الدين.

قال أشرف : الكون متحرك بذاته

لم يفهم شيئا ولكنه لم يسأله ، وعلى سفح التلة شرقا إنقضّ صقر بري على فريسته ، وقف يتلفت ثم ابتدأ بالتهام حمامة رصاصية اللون تناثر ريشها

قال أشرف : هل جرجيس معنا ؟

:نعم ولكن لماذا تسأل عنه وليس عن فوزي ؟

:لأن الليالي الطويلة تحتاج الى الصحبة المرحة

:ولكن جرجيس ليس مرحا

:هل هناك مرح أكثر من الغناء؟

لقد وجدت في إجابات أشرف القصيرة والدقيقة والمباشرة إسلوبا اخذت به وقررت أن اكون اكثر يقظة لأتعلم منه.

:تقول إنك تركت المدرسة وأنت في الرابع ثانوي

:نعم

:لماذا؟

:لأن أبي يحتاجني في المزرعة ، نحن نعيش أنا وهو فقط ، فقد توفيت والدتي وليس لأبي اخوة وانا الوحيد ، لم يقبل بالزواج ، لم أتحدث معه بالأمر ولكني سمعته مرة يجيب صديق له إنه لا يستطيع تحمل أعباء الزواج وإنه يفضل أن يقبل بقسمة الله.

بعد يومين في معسكر لواء المشاة شعرت بخيبة أمل فالحياة هنا لا تختلف كثيرا عنها في مركز التدريب فالنهوض الصباحي المبكر والتدريبات اليومية تتكرر ذاتها ،ألأمر الوحيد الذي يجري التركيز عليه هو الندوات اليومية للتوجيه

السياسي والإصرار على إقناعنا بالانتساب للحزب ، قلت اني لا أستطيع استيعاب السياسة ولا أحب القراءة واني تركت المدرسة لهذا السبب، ولكني مؤمن بالرفيق القائد حفظه الله ورعاه كما إني مؤمن إننا سننتصر على قوى الشر مهما كانت ، لا لأننا أحسن منهم بالسلاح وفي التدريب ، ولكن لأن معنا الرفيق القائد الذي وعدنا بالنصر ، ضحك نائب الضابط عبد الستار الدوري الذي يحمل عينين نظراتهما توحي بالزيف ووجها مصفحا يبعث فينا برودة تصل الى التجمد، قال بارك الله فيك ، كنت وأنا أحدثه على وشك البكاء حبا بالرفيق القائد

قال لي أشرف : وأنا أقول بارك الله فيك ورعاك

بدأت الطائرات ألأمريكية تكثف طلعاتها فوق المنطقة وبدأنا ننشد في تمارين الصباح أغان في تمجيد القائد، وأصر عريف حضيرتنا على أن نرفع أصواتنا بأقصى ما نستطيع وأن يترافق ذلك مع الضرب بأقدامنا على الأرض بقوة وعزيمة تثبت إننا رجال.

قلت لأشرف

البغال تستطيع الضرب أقوى:

لقد بدأت تتعلم بسرعة:

قال أشرف ذلك وهو يميل نحوي ليهمس

أنت شرير كبير:

ولكن انتبه فهم قادرون على استخراج مصارينك للتأكد إنها لا تحتوي على فايروسات ضارة:

أصيب أشرف بنوبة برد شديدة ، طلب منه الموظف الصحي في إدارة الفوج أن يبقى في الفراش طوال النهار ، شعرت بالملل أثناء التدريب ، ولكني لم أستطع العودة الى مهجع النوم بعد تدريب الصباح فقد طلبوا منا أن نستعد لاستقبال قائد الفرقة وأن نثبت إننا مستعدون لكل المعارك وإن الطائرات والصواريخ الأمريكية لن تنال منا، كان أحد الضباط يوجه حديثه الى لواء المشاة الثالث بواسطة مكبر صوت يدوي وبجانبه ضابط التوجيه السياسي الذي كان يهز رأسه مؤكدا فيما

يقف آمري الأفواج في مقدمة وحداتهم رافعين رؤوسهم على نحو متصلب ، المبدأ يقول الجندي الجيد هو المشدود دائما وبثبات مؤكدا انه مشروع استشهاد .من اجل الوطن والقائد

كان قائد الفرقة يضع على كتفيه أكبر كمية من النجوم رأيتها في حياتي ، وعلى صدره نياشين ملونة لا أدري كم من المعارك الظافرة خاضها ليستحقها، كان حذاؤه ألأحمر لامعا وبدت شواربه الحمراء كأنها صناعية من دقة تنسيقها ، يمشي في المقدمة وعلى مسافة خطوتين وراءه كان آمر الفوج الرائد صالح أبو العافية يضفي على ملامح وجهه انطباعا بالخضوع وابتسامة ذليلة، استعرض قائد الفرقة الفوج بعد ان أدينا تحية القادة وتطلع الى صفوفنا بكبرياء وقفل عائدا دون ان يبدي اية ملاحظة ،

في المهجع استلقى أشرف مهموما ، لم يكن ذلك بسبب المرض ، أعلم انه لا . يحب ان يشاهد المسؤولين عادة

:كيف حالك

:لا بأس

كان في صوته رنة خوف غريبة استثارت فضولي

:هل المرض خطير

:لا ... ألأمر أبعد من ذلك

:كيف... ماذا حدث ؟

:مشكلة حقيقية لم تكن في الحسبان

:لقد اقلقتني

كنت أتناول بعض الجبن والخبز الذي وضعته أمي في حقيبتي حين دخل نائب الضابط شلش من شعبة التوجيه السياسي ليفتش المهجع كعادته حين نخرج للتدريبات الصباحية وكمجاملة دعوته ليتناول معي شيئا من الجبن ، شكرني

ولكنه حدق طويلا بالجريدة التي كان الخبز والجبن ملفوفا بها، كانت الجريدة تنشر صورة للرفيق القائد في أعلى صفحتها الأولى ،

قال بنبرة إستنكار : ماهذا ؟ هل بلغت بك الوقاحة ان تلف طعامك بصورة الرفيق القائد؟

أخذت على حين غرة وأرتج علي القول فالتهمة بالغة الخطورة

قال : هيئ نفسك للجنة التحقيقية الساعة الخامسة مساء

لم ينتظر ردي واستدار خارجا ، لم اكمل طعامي ، أشعر إن مصيبة ما تنتظرني.

:ليس الأمر بهذا السوء , سأغسل وجهي وبعد الشاي سنفكر سوية،قال اشرف الذي بدا وكأنه يستغرق في تفكير مرهق

شعرت ان ما أقوله مهم ، مشيت بثقة الى المغسلة ثم الى (الكانتين) في الباحة الأمامية وعدت بكأسين من الشاي ألأسود المغلي منذ الصباح

:أنت قمت باستخدام الجريدة عامدا وعارفا بأن فيها صورة الرفيق القائد

: أين الحل في هذا ، انت تريد أن أختفي

:لا .... صبرك قليلا .. القائد هو نعمة الله والخبز هو أيضا نعمة الله ولهذا فأنت لم تدنس الصورة

:ولكن هذه حجة ساذجة

:أعرف ذلك ، ألم تقل لكل مقام مقال ، وأرى ان المقام هنا ملائم تماما

كانت اللجنة تنظر بعض القضايا وحينما دخل كانوا يقرأون أوراقا امامهم

قال النائب ضابط : نعم أشرف

:نعم سيدي

:موضوع استخدام صورة الرفيق القائد

كان الجو العام في المعسكر ينذر بخطر يتزايد مع زيادة الطلعات الجوية للمقاتلات الأمريكية وتزايد حركة المقاتلين الكرد على التلال المقابلة وقد أصبحت أوامر التدريبات اليومية تلقى علينا بلهجة متشنجة تنم عن نفاذ الصبر وغدت العقوبات شديدة القسوة ولأتفه الأسباب,

اللجنة سيئة الصيت تتكون من ثلاثة أشخاص ملازم أول مسؤول التنظيم الحزبي وهو شاب متعجرف ومغرور ،تكوّن لدي إحساس بأنه لا يحمل أية مؤهلات فكرية ويتدارى وراء ابتسامة بلهاء وصمت عاجز ونائب الضابط مسؤول (قلم) التوجيه السياسي، في الأربعينات قاس جدا وصلف ويميل الى الحاق الأذى بمن يوقعه سوء الطالع أمامه بقضية تحقيقية ، أما الثالث فهو مدني من تنظيمات الحزب في المنطقة يتطلع بعينين كابيتين وباردتين كأنهما عينا سمكة خرجت من الماء منذ بضعة ساعات في يوم صيفي حار ، لم تكونا ماكرتين ولكنهما على درجة كبيرة من اللؤم، نحن في الموصل قليلا ما نأكل السمك وأنا بالذات لم أتناوله ابدا ، كنت في المطعم حين حضر رجل من الجنوب عرفت ذلك من ملابسه والكوفية المنقطة ،طلب صحنا مضاعفا واشترط ان ازيده بلسان على ان يكون محمرا بعض الشيء ، كان يأكل بشهية، قال (للمرة الثانية في حياتي أحضر للموصل) قلت له أرجو ان تعتاد الحضور ، قال ان ولده مهندس مناجم في كبريت المشراق وقد أحضر له من سمك العمارة ، بني وكطّان.

:أنتم مولعون (بالباجة) ونحن مولعون بالسمك

:هل تصدق اني لم أذق السمك ، أشعر وأنا أتطلع اليه بالضيق وكأني على وشك الإختنا ق

أصر ان يعطيني سمكة، قال علي أن أشويها بالتنور ولكني رفضت بقوة

:ماذا تقول يا أشرف ، لماذا فعلت ذلك ؟

أعتقد اني بذلت مجهودا كبيرا كي أعطي لنبرة صوتي شحنة من الصدق والسذاجة

:الخبز يا سيدي نعمة الله والرفيق القائد حفظه الله ورعاه نعمة الله أيضا

تطلع الثلاثة نحوي ، تحركت العينان الكابيتان اولا وابتسم الملازم ببلاهة ولكن النائب ضابط تقلص وجهه ، شعرت بالخوف حد التعرق وخشيت أن يشمّ المدني، مسؤول التنظيم الحزبي في المنطقة رائحة خوفي وان يستثيره ذلك تماما كسمك القرش حين يشم رائحة الدم في الماء

حين خرجت كنت اشعر بظمأ شديد

:كل ما يجري جنون مطبق

قال فوزي ونحن في مقهى جمال ابن الملا بعد أن قدم لنا أشرف وجبة (باجة) مجانية وفاء لوعده بأن نتذوق باجة الحدباء،

:الجنون حالة مرضية ، ألا تعتقد انه يمكن معالجته ؟

قال أشرف بلهجته التي يمتزج فيها الهزل بعدائية مأزومة بالإحباط ولكني لم استوعب ما قالاه كنت مأخوذا بالكلمات التي تحمل ايحاء مواربا ،

كاسات الشاي يتصاعد منها بخار خفيف وفي الشارع بعض المارة ومقهى جمال ابن الملا لايزال ينتظر رواده وزبائن باجة الحدباء يحتسون الشاي في المطعم، اهتزت الطاولة وتموجت سحابات البخار حين عبرت السماء ثلاث طائرات على ارتفاع منخفض.

لم يطرأ تغيير كبير على المدينة، وتواجد بضع عشرات من الشرطة المسلحة لم يكن غريبا يستدعي الانتباه كما ان تزايد أعداد الحراسات لعناصر الحزب في الأزقة والشوارع لم يبدو غريبا أيضا ، لأنهم عادة ما يملؤون المدينة عند بوادر

أية ازمة سياسية ، ولكن الملفت للنظر كان في كثافة التحركات العسكرية على الشوارع الخارجية وكثرة التغييرات في مواقع الوحدات العسكرية.

:ولكن هل سيشملكم النقل؟

قال أبي ذلك ونحن نتناول الطعام في الساحة الأمامية لمنزلنا

:ربما فقد وصلت إشاعة الى ان اللواء قد ينقل الى بغداد لتعزيز القطعات هناك ، ويقول فوزي ان المعركة الرئيسة ستكون في العاصمة وستكون معركة مدن حيث يتم التركيز على المشاة والقوات الخاصة.

لم يعلق أبي واكتفى بتنهيدة عميقة ونهض ليغير مجرى الماء

قال فوزي : قد لانلتقي مجددا ولهذا سنحتفظ بذكريات هذا الصباح الجميل وكرم أشرف والصحن الشهي لباجة الحدباء

لم يترك لأشرف الأحتجاج على دعابته وتابع

المهم أن تتذكروا ان الحرب هذه المرة مختلفة تماما وهي كما يقول ألإنكليز : !تذكرة لسفرة واحدة

كما انها لن تكون في أسلوبها مشابهة لحرب الكويت، أما ما يقوله جنرالات الهزائم العربية ، فهو مجرد لغو فالحرب غير متكافئة بكل المقاييس ونحن نعاني من خلل فاضح في هيكل الجيش نفسة ،كما ان الشارع لا يعكس حقيقة مشاعر الناس الذين لا يدينون بولاء الحب للقيادة وانما بولاء الخوف الذي سينتهي قطعا عند زوال الأسباب.

شعرت بالخوف فقد كانت الكلمات التي أسمعها مثل زخات رصاص طائش ، انكمشت وانا أتلفت بين الشارع الذي بدأت الحركة به وكراسي المقهى التي لازالت فارغة عدا الكراسي المرصوفة الى جدار المقهى ،

اتسعت عينا أشرف وبدا فضوليا ومهتما الى سماع المزيد

:هل هذه آراء الوالد؟

كان ابو فوزي عقيدا في الجيش وحصل على الماجستير في العلوم السياسية من كمبرج بعد اعفائه من الخدمة بسبب خلافه مع مسؤول التنظيم الحزبي في وحدته حول رفضه السماح للجنود الحزبيين بالإعفاء من التدريبات الصباحية.

كاسات الشاي انتهت والإجازة القصيرة لات غطي الفترة اللآزمة لإنجاز احتياجاتنا وعلينا أن نسرع الى دورنا

شعرت وأنا في الطريق الى البيت إني قد تخلصت من كابوس قاس ، فقد كان حديث فوزي وإيماءات أشرف خطيرة وكنت أغالب خوفا يقبض على قلبي ، أمامي في مطعم الحدباء كان أحد رفاق الحزب يتناول طعامه بتؤدة فيما تدور عيناه بكل اتجاه وشعرت انه قد يسحب القلم المعلق في الجيب الصغير في أعلى اليد اليسرى ليكتب تقريره الصباحي عن حديثنا(امة عربية واحدة ذات رسالة .خالدة) ثم تبدأ المعلومات وبعدها لن يكون لنا من أي أثر

قال والدي : هل ستظلون في الموصل؟

فكرت بما قاله فوزي إن الجبهة الشمالية لن تشهد حربا حقيقية بسبب موقف الأتراك! ولكني لم أكن أريد الدخول بالتفاصيل التي أجهلها , لماذا لم توافق تركيا على السماح للقوات الأمريكية بالدخول ، قال أشرف لاشك ان ألأمر خدعة كبيرة ولم أفهم على وجه الدقة هل هي خدعة ام ان الأتراك يتعاملون مع الأمر باعتبارهم مسلمين

:حتى ألان نحن باقون

:كنت أرغب ان تتزوج

:لا أعتقد إن هذا ممكن ألان ،وعلى العموم هل سمعت مات قوله الفتيات هذه الأيام ؟

:عن ماذا ؟

:عن الزواج ... كن يتندرن فيقلن ((لو ملازم لو ملازم)) ولكنهن يقلن الان

(لو مدرس لو ما أعرس) انهن يرفضن الضابط ويطلبن المدرس لأنه لن يذهب للحرب ،ابنك لا ضابط ولا مدرس فهل تعتقد إن هناك من تقبل به ؟

ابتسم والدي وكانت هذه إشارة طيبة

أخزى الله شيطانك ! كان الجميع يدفع بأبنائه الى الكلية العسكرية ، كان الضابط لا يتعب في ان يجد عروسا ... تغير كل شيء!!

صمت وهو يدخن ببطء

:بالأمس جاء فريق من الضباط وكشفوا على الكتف صعودا الى الشلالات وبعد الظهر قامت الجرافات بتسوية الأرض وحفروا بضع مواقع بامتداد النهر وقد أخبرني أحد الجنود العاملين وهو يشرب الشاي معي إنهم سينصبون مضادات أرضية ومنصات لإطلاق صواريخ أرض ـ جو ، من حسن حظنا ان المزرعة خارج هذا الترتيب.

الخريف هذه السنه له نكهة خاصة فقد بدأ مصرا على الحضور المبكر والرياح الشمالية كانت جافة وشديدة البرودة وأشجار البرتقال بدت أوراقها كابية ، أما دوالي العنب التي لا تخلو منها البيوت والمزارع فقد نفضت أوراقها وظهرت أغصانها داكنة فيما كانت القشرة يابسة تتخللها شقوق كثيرة.

في الليل كانت تسمع أصوات إطلاقات متفرقة وأحيانا زخات من رشاشات ثقيلة وكأنها تؤكد وجود السلطة ، وعلى(الكتف) كان الجنود يتطلعون الى دجلة بصمت وأحيانا ينصتون الى بعض الأغاني التي تخترق سكون الليل الثقيل، وقد تضيع في صوت الرصاص المنطلق نحو الطائرات التي تعبر السماء على ارتفاعات شاهقه ويأتي صوتها متوعدا ينشر حزنا غامضا في الشوارع الخالية وفي البيوت التي يغفوا سكانها بانتظار عودة أبنائهم ، كان الشباب إما في الخدمة العسكرية وإما في مجاميع الجيش الشعبي ، يضغط الخوف والبرد والوحدة الموحشة على قلوبهم ،

كانت لقاءاتنا ، فوزي وأشرف وأنا ، يشوبها ألم ممض ،حين يبدأ فوزي بتحليل الوضع العسكري ويصمت أشرف وأحاول أنا ان اتابع الحديث الذي بدأ يستهويني.

قال فوزي : سمير إذا انتهت هذه الحرب العبثية على خير، عليك ان تمتحن (خارجي)

ابتسمت بخجل فأنا على يقين إنه كان يحاول ان يرفع من معنوياتي

:ان شاء الله

قال أشرف : سأساعدك

شعرت بشيء من السرور

بدأت بعض الغارات المتفرقة على منصات إطلاق الصواريخ والمضادات الجوية وفي موقع قريب كانت ألإصابات مباشرة ،لحظت ان النائب ضابط في التوجيه السياسي منقبضا وفي عينيه نظرات حائرة وهو يحاول أن يعطي صوته شحنة من التعاطف وهو يتحدث مع الجنود الذين بدوا متشنجين أمام هذه التحولات التي لا أحد يعرف الى أين ستنتهي ، وعما إذا كان عليه ان يظل على وضعيته الرخوه واللينة لامتصاص غضب وخشونة جماعة التنظيم الحزبي في التعامل اليومي.

قال أبي: يبدو ان الحرب قادمة وعلينا ان نبدأ بشراء المواد الغذائية فقد يتعذر الخروج.

كان فوزي يؤكد ان الحرب ستكون قصيرة وربما خاطفة لأن جيشا تبلغ نسبة الهروب فيه الى أكثر من أربعين في المئة لا يمكن أن يصمد في حرب جدية، والعدو هو أمريكا ، تذكر ما أشيع عن الرئيس المصري حينما قال ، دي أمريكا

يا عم

قال أبي : هذا قدر الموصل ، لقد كان يحدثني جدك عن المجاعات التي تعرضت لها المدينة في تاريخها بسبب الحصار الذي كانت تفرضه القوى المهاجمة.

كان أشرف يحدثنا متفاخرا بأن في منزلهم أكبر سرداب يكفي العائلة في الصيف والى خزن كميات كبيرة من التموين ، جرار الجبن ،اللحم المدخن ، زيت الزيتون و البقوليات ، فكرت ولكن اين سيخزن أبي المواد التي سيشتريها ؟! لو كانت أمي على قيد الحياة لحفرت لنا سردابا في المزرعة ، كم هومهّم وجود امرأة في البيت ! حسنا ان بيتنا بدون امرأة ، أم ،أخت ، زوجة أو حتى قريبة ، سيظل بيتكم يفتقد الدفء ، المرأة فتحة في غيوم الشتاء الثقيلة الى السماء الزرقاء الواسعة والبهية والواعدة بالشمس،

كان يحدثنا بعاطفة دافقة على غير عادته

قلت لكم إنها الدفء ولا ادري كيف يمكن ان تنقضي الأيام في بيت ليس به - امرأة ، سمير فكر بهذا جيدا وبالطبع يمكن ان يحل ابوك هذه الإشكالية

قال : لو كنت قد تزوجت لساعدتني امرأتك ولكنك رفضت

:وأتركها وحيدة ! لماذا لا تستأجر عاملا معك ،سيما وان وضع المزرعة جيد ومعظم المنتج يباع مباشرة للسكان الجدد الذين يفضلون شراء الخضار مباشرة وهي طازجة ،

:وانا أيضا أفكر بذلك فالمنطقة أصبحت عامرة ، وكل يوم تضاف أعدادا جديدة من السكان ، ولكن الغريب في أمرهم انهم جيران غرباء الكل يتجنب الكل، وكأنهم مثلي في مزرعة تأكل النهار ، حتى النسوة نادرا ما يتحدثن مع بعضهن ، ربما غير الزمن من طباعهن ! الحزن كالعليق يمتص الرغبة في الحياة ،

لم أعلق على حديثه ،كان يتهرب من ألحديث عن زواجه .... كنت أفكر بدعوة الغداء التي وجهها فوزي لي ولأشرف في دارهم، وكنت مترددا في الذهاب لأني لا أملك بنطالا وسترة وعلى الدوام كنت ارتدي (الدشداشة) وسترة سوداء اشتريتها من دعدوش أبو باله ، ربما لا يسمح الوقت بشراء بنطالا فمساء اليوم نفسه علينا الالتحاق بوحدتنا، ولكني قررت ان أحاول فالسوق قريب والنهار في اوله.

:أريد بعض النقود لأشتري بنطالا فانا مدعو الى بيت صديقي فوزي وليس من المناسب ان اذهب بالدشداشة او بالملابس العسكرية

تطلع نحوه ابوه بشيء من الدهشة

:كم ؟

:خمسة آلاف

فكّر انه لم ينتبه الى هذه المسألة ، ،ن يرتدي بنطالا، لقد تركه منذ أن ترك المدرسة وكان قد شعر بالراحة حينها وهو يرتدي (الدشداشة) وكأنه يحقق رغبة ذاتية بالتحرر مؤكدا ان عهد المدرسة قد انتهى ، إنه ألان يفكر بما قاله فوزي لماذا لا يمتحن (خارجي) وبالتشجيع المباشر لأشرف وبالكوة الصغيرة التي ابتدأت تنفتح ببطء في ذهنه على سماء زرقاء بدأت مشوشة في البداية ولكن صحبة ستة أشهر مع الصديقين، عملت على فتح ممرات نحو فضاء مضيئ بخضرة غضة تمتد الى سماء بهية الزرقة ، أعطاه فوزي بضعة كتب ليقرأها في ليل المعسكر الطويل ، كانت في البداية قصصا وروايات عن أناس وعوالم لم يسمع بها استهواه الوصف الدقيق للعلاقات الإنسانية بنقائها وكأنه عالم الطفولة وهو في حضن أمه حين كانت تحدثه عن ابنة السلطان التي أحبت الخباز الذي كان يصنع أرغفة الخبز الشهية ويحملها الى بيتهم ، ألف ليلة وليلة والعوالم السحرية الملونة التي تشرق على بغداد ، وحين وقف عند حكاية أبو القاسم الطنبوري ، قال اشرف مالها ؟ قال سمير، ليس من المعقول أن يكتب هذا المؤلف والسياسي قصة حذاء يتنقل في أحياء بغداد بهدف الضحك !

ثم كتب التاريخ التي أحب منها حكايات البطولة لأناس حاربوا الطغيان والظلم وتحدوا الشرطة وكل وسائل القمع ، فوزي يشرح له أحيانا وهو يستمع بشغف حالم مأخوذ ، ولكن من هو (نتشة) فوجئ فوزي وقال له سيشرح لك أشرف من هو (نتشة) ! وإن كنت أعتقد ان دور السيد نتشة لم يحن بعد!! وحين تساءل ولكن لماذا نخوض كل هذه الحروب ؟ هتف أشرف ألان أنت على الطريق ! أي طريق ؟! قال مستفهما ، المعرفة الحقيقية ، قال اشرف، نحن ألان في طور التفاهم لأننا نتكلم لغة واحدة.

قال فوزي : ليس لدينا متسع من الوقت , لأننا يجب ان نلتحق بوحداتنا قبل السادسة مساء ولهذا سأنتهز الفرصة لنتحدث بما أردته من هذ اللقاء ، كلّ منا يعرف الأخر جيدا فنحن من مدينة واحدة وجمعتنا الصدفة منذ أكثر من ستة أشهر توطدت فيها العلاقة بيننا ونحن مشتركون في نقاط عدة سلوكية وفكرية رغم بعض التباين وهو تباين طبيعي ولكن ألمهم ان كلا منا يمثل شريحة في هذه المدينة وهذه النقطة بالغة الأهمية فيما أتوخاه من حديثي

قال أشرف : هذه مقدمة بعثية مرفوضة

قام فوزي ليستلم الشاي من أخته التي لم ير غير كفها وسوا ر ا ذهبيا ثقيلا، نساء الموصل يعشقن الذهب ومن همومه انه لا يدري كيف سيؤمنه للمرأة التي قد يختارها مستقبلا ، ربما ستكون قنوعة ! ولكن هل سيجد في المدينة كلها من ستقبل بسوار واحد ، مديحة التي تحضر السوق أحيانا حينما تمرض أمها ، كانت تلبس ثلاث أساور ، فهل ستقبل منه أسورة واحدة.

قال فوزي : ما أقوله خطير لأنه يتعرض للسلطة ، اني اعتقد ان أمريكا وحلفائها سيدخلون بغداد هذه المرة كما ،أعتقد ان المحتلين لا يملكون أجندة واضحة أي انهم بدون خطة عمل لما بعد سقوط النظام وهذا سيخلق فوضى شاملة وسيحاول كل مغامر يمتلك مجموعة من المؤيدين التسلق لاستلام السلطة او نهب البلد ، إنتما تريان إن ألأمر بالغ الخطورة.

حين صمت وهو يتطلع نحونا شعرت بمسار العرق البارد نازلا من رقبتي حتى قدمي ، فهمت ان فوزي يطلب ان نشكل عصابة ونحارب في بغداد من أجل مكان ما في السلطة التائهة دونما صاحب

قال أشرف بلهجة عملية : ما هو المطلوب ؟ فكّرا ان أمامنا ثلاث ساعات لنكون في المعسكر

قال فوزي: حسنا ، اعتقد ان علينا ان نبدأ ببناء نواة لحركة سياسية منذ ألان وان ننشط في بلورة بيان سياسي تمهيدي لهذه الحركة مبني على مساواة العراقيين كافة في المواطنة وامام القانون وترسيخ ثقافة السلام والعمل على

صياغة برنامج للتنمية الشاملة لكافة المحافظات على أساس ما يملكه العراق من إمكانات مادية هائلة وان نتعاون مع المختصين القانونيين في بلورة مشروع دستور ديمقراطي دائم ، أسمع رأييكما .

شعرت ان فوزي في حالة وجدانية وكأنه ينشد تراتيل دينية تبعث فيه نشوة تجعل عينيه غائمتين بغموض فاتن وتعطي لهجته شحنة من الصدق والعفوية وكنت كأني اعرفه لأول مرة ، قال أشرف ذلك وهما في الباص الى المعسكر

:هل تعتقد انه جاد ؟ وهل ستوافق على العمل معنا ؟

لم ينتظر إجابة سمير وكأنه يحدث نفسه تابع

فوزي بطبعة جاد ويمتلك روحا قيادية كما ان لدية رؤية سياسية،وعلى العموم : فان كل الحركات السياسية بنيت على المنوال ذاته وهي تحتاج الى الفكرة اولا والقيادة ثانيا والمؤمنين بها ثالثا وألأخيرة حصيلة جهود نظرية وعملية وستكون انت المعول عليه في هذه النقطة بحكم علاقاتك الواسعة في السوق وما سنخطط له من أشكال الأتصال بالناس ، على هذه الشاكلة ستنمو الحركة، المهم ألاخلاص والجدية .

كانت الطائرات المعادية تغير على أهداف قريبة فقد كانت أصوات الانفجارات تسمع بوضوح ، وعبر فضاءات المساء الغائم كان وميض خاطف يعبر السماء ثم ينتشر دوي اصم شرس يمزق السكون المحاصر بالوميض المتوعد وبالدوي المدمر , قرأ آية الكرسي بعجلة الخوف من المجهول القادم بصلف

قال السائق : سنقف بعض الوقت

قال مجند في آخر الباص : انهم يقصفون مواقع منصات الصواريخ السرية التي تم نصبها قبل يومين ، يمكنك مواصلة السير لأنهم لن يستهدفونا فالحرب لم تبدأ بعد.

قال أشرف : وهذه أليست حربا ؟

قال المجند : لا ، انها تأمين الطريق للحرب

في ساعات الاستراحة بعد التدريب الروتيني الصباحي كانا يتبادلان الحديث حول(الحركة) وكانا قد أعطياها اسما اقترحه أشرف (الحج الى مكة) ولكن فوزي قال لنترك الموضوع الى الغد، قد تتحول الأمكنة وقد تغيّر الكلمات معانيها

مازال الحشد ألأمريكي يتواصل وقد امتلأت مدن الخليج العربي ومطاراته بالعسكر القادم الى العراق ولازال التجاذب الأمريكي التركي حول الجبهة الشمالية محتدما دون وجود نتيجة قطعية وهذا ما جعل أبو فوزي يردد إن عدم استخدام الممر الشمالي سيضمن سلامة مدننا

قال فوزي : لقد وضعت البيان ألأول للحركة التي سندعوها(الحركة الشعبية من أجل الديمقراطية)

قال أشرف : الاسم يخضع بشكل فاضح لأسلوب السجع العربي في القرن السابع الهجري كأنه من مقامات الهمداني ، لماذا لا نسميها (التجمع الديمقراطي)

قلت : هذا اسهل ، ولكن ماهي الديمقراطية ؟

قال فوزي : لابأس ، نغير ألإسم ، اما الديقراطية فهي شكل الحكم ، الحكم الحالي ديكتاتوري أي حكم لا يهتم برأي الشعب ، حينما حارب إيران لم يعود الى الشعب ،وحينما دخل الى الكويت لم يسأل الشعب ، وحينما قرر مواجهة العالم لم يسأل احدا ، اما الديمقراطية فهي ان يعود الحاكم الى الشعب عبر المجلس الوطني المنتخب بحرية ليسأله

ولكن لماذا يعود الحاكم للشعب وهو الذي جاء بمشيئة الله؟ :

كان فوزي صبورا معي رغم انه كان متعجلا أن نوافق على نص البيان بإعلان الحركة وبرنامجها ليقوم بطبعة ولنتولى توزيعه سرا.

:لقد كلمت بعض الأصدقاء في بغداد ممن كانوا معي في إنكلترا وبعض المعارف هنا في الموصل وهم موافقون على الانضمام م للحركة

كان توزيع المنشور محفوفا بالمخاطر فقد كانت دوريات من الشرطة الراجلة والسيارة تجوب المدينة ، كما إن عددا من منتسبي الجيش الشعبي كانوا يرابطون في مناطق متفرقة ، ورغم ذلك كله، تم توزيع المنشور بدسه من تحت الأبواب ومن ضلف الشبابيك المفتوحة كما تم لصق بعضه على واجهات المحال التجارية ، كانت عملية ناجحة وفي الصباح كان حديث المدينة ، ومساء كان بعض الجنود يتحدثون عن عملاء الموساد والاستخبارات ألأمريكية ألذين بدأوا نشاطا معاديا يعاونهم الشيوعيون ، واقترح العريف (غازي) وهو بالمناسبة من أهالي الشرقاط ، أن يؤدوا جميعا صلاة جماعية ولا فرق ان كان الجنود يضعون أيديهم على صدورهم أو ان يتركوها ممتدة الى جانبهم لأن صلاة الدعاء للحكومة وللرئيس القائد هي واجب الجميع ، لكن أحدا لم يأخذ الاقتراح على محمل الجد وانشغلوا باحتساء اقداح الشاي المغلي وهم يتطلعون الى تباشير المطر القادم.

الفصل الثالث

بإصرار تابعت اللعبة، بل يمكنني القول اني أدمنتها، وكمن يبحث عن مجازات يعبر بها عن نفسه كنت أجد في دور المغامر في الليل الشتوي البارد والموحل إمتدادا لما كنا نفعله ونحن صغار حين (نلعب حرامية وجرخجيه) ، ننتخب اولا رئيسين للفريقين ويبدأ كل رئيس باختيار مجموعته ، يبدأ الرئيس (الجرخجي) فيطلب أحدنا ولكنه يرفض والكل يفضل دور الحرامي وأحيانا تفشل اللعبة لأن أحدا لا يريد دورا مع ألحكومة والكل يقف في الجبهة المقابلة، جبهة العداء للسلطة , معارضتها والبحث عن المتاعب لها فهل كان هذا كما يقول اشرف سلطة اللاوعي في ضمائرنا, اللاوعي ألأجتماعي , وحين سألته ولكن ماهو اللاوعي , قا ل ضاحكا آه لقد نسيت اننا لم نبدأ بعد بالعم نيتشة ! وحسب الترتيب التراكمي لن نتحدث عن العم فرويد !

كنا نعتقد ان السلطة تمثل الشر كله وان الحرامية هم الانتقام الالهي منها ، وحبنا لدور الحرامي هو انجذاب عفوي للمقاومة ، من روبن هود الى أرسين لوبين ، كنت ألتهم القصص التي يعطيني إياها أشرف وعرفت لاحقا الطريق الى مكتبة القطان في(السرجخانه) حيث كنت أستعير القصص لقاء 250 دينارا للقصة ، لم يبدي أبي أية ملاحظة وهو يرى بعض الكتب في غرفتي أو وهو يراني أجلس تحت أشعة شمس تشرين الثاني المخاتلة ، متداريا بالحائط الشرقي لأقرأ . مسترخيا للخدر اللذيذ الذي يبعثه الدفء المخادع

في الليل اخطط لتوزيع منشورات (التجمع الديمقراطي) ، عندما تحين ألإجازة ، في ألأزقة الضيقة والمظلمة واستغرب أحيانا من أين جائتني كل هذه الجرأة دون أن اشعر برعشة ألارتباك وأفكر ربما من عمق متاهات السخرية من كل هؤلاء المنتشرين في الشوارع يحمون (الحكومة) و الذين أرى في عيونهم ومضات الخوف وهم يتدارون وراء ضحكات بلهاء يطلقونها بصوت مرتفع حين أمر أمامهم ملقيا السلام بلهجة لا رنين لها انمحت منها معالم التعاطف و التواصل حتى إني أحس انها شتيمة بذيئة، قال فوزي يجب ان تبتعد عن مثل هذه

المشاعر ، اننا نتوجه الى كل هؤلاء في المنشورات التي نوزعها ، انها لهم أصلا ، ومثل هذه الروح الشريرة التي بدأت تتملكك تتعارض وما نريده.

كان البيان الرابع يتحدث عن الحكومة التي نريد ، حين أتحدث بلغة الجمع أشعر اني متوازن أكثر لأني مع الجماعة أشعر بالاستقرار والدوران في حركة متناغمة مع حركة منتظمة مخطط لها يعطيني شعورا بالحماية ، تداول السلطة والتعددية والحل الديمقراطي للأقليات كانت مفاهيم عامة أتعبت فوزي بشرحها على نحو مبسط وكنت أود ان اتحدث مع بعض من ألتقيهم عن ألاليات الديمقراطية أو ان اشرح لعامل مطعم (باجة الحدباء) الكردي ماهو الحل للقضية الكردية ليتركوا السلاح ونعيش سوية ولكني كنت أخاف ذلك جراء تحذيرات أشرف ، وعلى نحو اكثر دقة أجد اني غير مؤهل بعد لدور الداعية وان ماينا سبني هو دور موزع المنشورات السرية عبر ألشوارع المظلمة للمدينة.

كنت أستطيع ان أسمع حفيف الكلمات السرية في أسرة دافئة وان أشم رائحة رجل الجيش الشعبي المتواري وراء مخلفات القمامة يشله الخوف والبرد والمجهول فأخفي لفة المنشورات واصيح بصوت عال ((السلام عليكم)) ، يفاجئ الرفيق المتخفي فيرد بصوت مبحوح مرتجف يقطعه شعور بالتوحد، أتجاوزه يداخلني إحساس مرح بالتفوق ، وفي الزاوية القريبه أرمي نسخا من البيان الرابع ، ابتسم في وجه الليل الموحش ، من أجل الديمقراطية والعم نتشه.

قال فوزي : مساء اليوم سننتقل الى مرحلة جديدة من بناء ألتجمع الديمقراطي، على كل منكما ان يأتي بهدية بسيطة على أساس انكما تشاركان في عيد ميلادي وان يكون الحضور في الساعة السادسة ،بالطبع هذه عملية تمويه لتلافي اية اشكالات غير محسوبة..

سألته بسذاجة : ولكن ما هو عيد الميلاد ؟

قال : لدى بعض الناس عادة الأحتفال مرة في السنة بيوم ميلاد هم ، ولهذا يدعون الأصدقاء الذين يجلبون هدايا ويقدم صاحب العيد (الكيك) والحلويات , وبهذه المناسبة ستأكلون البقلاوة السورية والفستق الأيراني و أحلى كيك من صنع الوالدة ،

قال أشرف : هل سنكون وحدنا ؟

لا .... نحتفل اليوم فعلا بعيد ميلاد(الحركة) بحضور الاصدقاء الجدد وسيتم : تحديد المسؤوليات عبر ألانتخاب العلني والمباش

:هل يعني هذا ان العائلة على علم بالموضوع ؟

:نعم وبمباركة الوالد

كان جو الصالة في بيت فوزي احتفاليا فقد علقت بضعة بالونات ملونة وعلى الطاولة الكبيرة المركونة الى الحائط بعض أصناف الطعام وقالب كيك كبير مزدان بشمعة حمراء، في الصالة كان قد سبقنا الى الحضور أربعة اشخاص عرّفنا فوزي عليهم.

:السيدة تماضر مدرسة رياضيات ، السيد رياض مهندس في كهرباء الموصل، الآنسة وداد طالبة جامعية ،واخيرا السيد حمدي صف منتهي في كلية الهندسة،

...تابع

قبل ان نبدأ أود التأكيد على ان تكون إجابتنا موحدة فيما اذا وقع ما لم يكن في الحسبان ، أنتم هنا للاحتفال بعيد ميلادي ،الجميع يعرف على وجه الدقة ماذا يجمعنا ، نحن نمثل الهيئة المؤسسة للتجمع الديمقراطي بهدف ان نشغل بعضا من الفراغ الذي سيحصل بعد سقوط السلطة ، ومن أجل إعطاء الحركة زخما في العمل ، علينا ان نحدد المسؤوليات على نحو علني ومباشر

أولا ، امين عام الحركة.....

تطلع نحونا مستفهما

قالت ألانسة وداد : فوزي

ابتسم فوزي : ما رأيكم ؟

قلت : فوزي ، سيكون القائد المثالي للحركة ، لننهي هذه النقطة

أيد الجميع المقترح

المسؤول المالي ؟

قال حمدي : السيدة تماضر

أيده فوزي

مسؤول ألإعلام ؟ :

قلت بسرعة : اشرف

لم يعترض أحد

اقترح المهندس رياض أن يكون حمدي مسؤلاً للتنظيم الطلابي ،

قدم لنا فوزي عصير البرتقال وقال : والآن جاء دور المسؤول الأمني في التنظيم ، واعتقد من خبرتي بالجميع ان المرشح لهذه المسؤولية الأخ سمير

صدر البيان رقم خمسة وهو يحمل بشرى للشعب العراقي بتشكيل اللجنة العليا لحركة التجمع الديمقراطي وفي أسفل البيان كان الاسم الحركي لفوزي , ابو نزار ((وقد عرفت معلومة الأسم الحركي من أشرف))

لم يخرج الجميع سوية ، استأذن أشرف وسمير

قال حمدي : ولكن ألأخ سمير، يبدو انه غير متعلم

قال فوزي : نحن نعلمه والمسألة المهمة هي العقل المتحرر والمستعد للاستيعاب ثم اننا بحاجة الى عنصر من وسط الجماهير بعلاقاته الواسعة وبقدرته على التمويه اذ لآ أحد يلتفت اليه عادة ، الحزب والسلطة تركز على المثقفين لاعتقادها انهم شريحة تشكل خطرا عليها من جهة ، ولكون الرئيس القائد يكنّ كرها غريزيا لهم من الجهة الثانية ، تتذكرون انه في الاجتماع الخاص بإصلاح

النظام الجامعي والذي عرض في التلفزيون كان ابن مدينتنا الدكتور الهاشمي يتحدث عن الضوابط ألأكاديمية لمنح شهادة الماجستير والدكتوراه وقاطعه الرئيس ليتحدث عن ضرورة العناية بالمرافق العامة في عموم كليات الجامعات العراقية وحينها نظر المجتمعون بعضهم الى بعض باستغراب ولكن ذلك دام لحظة خاطفة !فالقائد الضرورة يفهم عن وعي الاشتراطات الضرورية للإنسان المعاصر !!ا

:لماذا لا يمكنهم شرح الموضوع له ؟

:خوفا من نظراته الصارمة والمتوعدة

في الطريق الى المعسكر فكّر بعيني وداد ، انهما تبعثان على الشعور بالراحة، نظراتهما تجمع تناقضا شغله ، وادعتان ولكن ذلك لم يمنع الإحساس بأنهما تلتمعان بقوة غريبة وتعكسان ثقة تعبر عن إرادة تكمن في عمق التيارات الداخلية وهي تتفحصه تماما كتيارات ت دجلة وهي تتراخى في مسيرتها بإصرار عبر وحشة ليالي الخريف الى مدن قصية عند البحر ، كم تمنيت ان اسبح في البحر ، ان أغوص في مدياته المتناهية ، أتعرف الى عوالمه الخفية ، ان أستلقي محدقا في الشمس التي تمتد الى نهاياته الخفية وشطآنه حيث يتراكم رمل ناعم احمر ، اعبث بالمحّار المنسي على جوانبه حيث يتصالح مع ألأرض ويبتعد عن السماء ، كانت عينا وداد تختلف عن كل العيون التي شاهدتها ، كانتا بين الرفض والقبول ، محايدتان تماما ، لايمكن ان تجد فيهما ما يلزمك بالتبرير ، كانت أمي تقول ان عيون الجن تقدح شررا أما عيون الملائكة فكلها طيبة ، وحينما كنت أحدث النائب ضابط عضو مكتب التوجيه السياسي كانت عيناه كعيون الجن في حكايات أمي ولكني لم ألمح الطيبة الا في عيون الأطفال.

ضربت طائرتان مكانا ما في المواقع المتقدمة ربما في(كلك) وردت بضعة مدافع مضادة للطائرات بطلقات متفرقة ثم عاود الصمت الموحش نشر ظلاله وعاودت التفكير بعيون وداد،لم افكر فيها كفتاة أعني في الحقيقة كأنثى ، كنت أشعر وانا قريب منها بهدوء غريب يتسلل الى روحي وبسكينة تبعث في استرخاء مسكرا ورغبة في أن أظل أستمع الى صوتها المشحون بالحنان ينسكب

في مسامعي كأيقاع حالم ،قال أبي ، لابد من القول انك قد تغيرت ، الجيش يعلم الانضباط والاعتماد على النفس ! كنت أود أن أقول له ، نعم لقد طرأ علي تغيير ، اني ألاحظ ذلك ولكن ليس بسبب الجيش ولا علاقه له بألانضباط ، لقد بدأ عقلي يتفتح وتغيرت لغتي ايضا،ما أقوله ألآن أكثر وضوحا وثباتا ، وما افكر به أبعد من المزرعة والخضار وفتيات السوق، أحلم ألآن وانا مستيقظ في دورية الحراسة أو في عنبر النوم بالجيش كله وبالمجتمع، السياسة تشغل فكري وأشعر احيانا اني طائر اسرع من الريح وأعمق من الصمت الكلي الذي يلامس سطح دجلة في ليلة صيفية سماؤها صافية وقمرها يشع بخيلاء وهو يعبر السماوات ، أسبح في الشعاع الذائب وأحس ملمس الماء على جسدي العاري ينقلني من خدر الى آخر فتموت المسافات وأشعر اني اولد من جديد ، بدأت مداخيل الكلمات تتفتح وأنا أستمع الى فوزي .... مانريده هو الديمقراطية وبناء مجتمع متوازن جديد يتماشى ومقتضيات الحداثة واشتراطات العولمة ، العولمة هي التي ظلت مشوشة في فكري أياما طويلة ممضة ، قال حمدي.... المذياع من اليابان والقميص من الصين وأشرطة الفيديو من تايوان والسيارة من فرنسا والتراكتور من البرازيل اما الغازات السامة فمن ايطاليا وهولندة والبنادق من روسيا هذه باختصار هي العولمة ، العالم قرية صغيرة متشابكة ولايمكن ان يكون بلد في جزيرة ، ، انتقلت في قراآتي الى قضايا أكثر انشغالا بالسياسة وحين نصحني حمدي ان استمع الى ألإذاعات (الجادة) بادرت بشراء راديو صغير أريحه الى أذني لأستمع في سكون الليل إلى المتابعات السياسية في مونت كارلو والبي بي سي البريطانية ، بدأت أجد متعة في المشاركة بنقاشات التجمع الديمقراطي.

عند اعداد البيان السابع قلت

:ان البيانات السابقة كلها كانت تتحدث في أمور نظرية ولم نتوجه الى المواطن العادي في السوق ، في المدرسة ، وفي دوائر الدولة

قالت تماضر : فكرة جيدة

التمعت عينا وداد ببريق خاطف لشمس تهبط في دجلة متسارعة عند الغروب وعاودتا حياديتهما ، ولكني شعرت بان تباشير مطر ربيعي ستهل ثانية واني

سأشم رائحة الطين وسأسمع صدى تغريد البلابل في الضفة ألاخرى لدجلة حيث تمتد حقول غضة الخضرة.

لم يعد هناك مجالا للشك بان الحرب قادمة فقد اكتملت الأستعدادات الأمريكية لها في الخليج ، ولكن ما خفف عنا بعض الشيء ان البرلمان التركي لم يوافق على قيام الحلفاء بالدخول من شمال العراق وكان هذا يعني ان ويلات الحرب هنا ستكون اخف عما هي في الجنوب ! كما أشار رياض ونحن نعد البيان الثامن ..... سيجعل مهمتنا السياسية في الموصل أسهل لأننا سنحتفظ بكامل قوانا ولن يكون الفراغ السياسي مدعاة لفوضى شاملة كما هو الحال في بغداد حيث ستواجه القوى السياسية وضعا بالغ التعقيد لاحتمال نشوء بؤر فاعلة متنوعة ومتعارضة.

كنا بانتظار الزلزال نشخص نحو السماء لعّد الطائرات المغيرة على أهداف غير مرئية يتآكلنا حزن صامت متوحش ونحن نلمس بوضوح عجز دفاعاتنا الجوية عن منع الطائرات المعادية من تسيّد أجواء العراق فيما يستمر الضجيج الأعلامي ، وراية ام المعارك تخفق كغول أسطوري ولكن من ورق ، يصدر عنها حفيف القصب والبردي في متاهات ألأهوار الموحشة وتنفجر قذيفة عند الفجر في موقع على محيط الموصل فيختلط اللحم الآدمي بحديد المدفع المضاد للجو ويندفع صمت أخرس لاهثا يبني قبرا لبضعة جنود لايعرف أحدا من اين جاؤوا.

ولكن الزلزال تأخر وهو يقطع الأيام باتجاه العراق الحزين ونحن نحلم بأن نرث ألأرض وأن نكون في المساحة الملائمة قبل الآخرين فيما الطائرات المعادية تقطع في فضاءات التواصل بين الضفة والضفة ، الشتاء يمر بيننا يمسح وجه دجلة ويعصر الحزن مشاعره ولكنه يتماسك فدجلة لن تشيخ والموت عصي والشمس تظل تأتي باهرة تجدد الكون وتمنح الحياة للزهور البرية على امتداد سهول نينوى.

قال أبي : ألأرض تباع الآن بالمتر والتعامل بالدولار، ما رأيك ؟

:لاتبع فقد تحول الكتف الى منطقة سكنية وكل يوم سيرتفع السعر، لسنا بحاجة للنقود

:أعتقد ذلك ولكن على العموم أرجو ان تضع في حسابك إننا سنكون موسرين بعد تسريحك من الجيش وسنبدأ حياة جديدة

الرجل الذي جاءنا ليلا يفاوض على الشراء ، كان يستخدم حاسبة صغيرة قال اننا سنتحول فورا الى أغنياء ، يمكن ان نستلم ثلاثة ارباع المليون دولار ، كانت عيناه دائريتين تتحركان بسرعة مريبة فيما كان يستعين بكلتا يديه ليوضح حجم الثراء الذي سنتحول اليه، قلت لوالدي لن نبيع ،نظر الي الرجل بغيض ولكنه غادرنا بهدوء

قال اشرف: المدينة تتمدد الى الخارج كوحش كافكا والتحولات تغير في التركيبة الاجتماعية ، ستتحول الى برجوازي جديد في زمن العولمة والتحولات الأمريكية الكبرى ، هل سنظل أصدقاء؟

كنت افكر بوداد وبعينيها المحايدتين

كان البيان التاسع مختلفا فقد توجه الى المرأة العراقية ، يوم عيد المرأة العالمي على الأبواب وقد شرحت تماضر بإسهاب أهمية هذا اليوم لتوعية النساء بدورهن السياسي والاجتماعي ، كانت تتحدث وكأن المرأة كائن ضعيف مستهدف في حين كنت في السوق أعاني من النساء فقد كن ثرثارات ولجوجات ، يتسكعن في السوق ويسألن عن كل شيء ولكنهن لا يشترين الا المواد التي تركن البيت من أجلها ، قال أمام الجامع انهن مخلوقات حمقاوات وناقصات عقل ودين وان الرجال قوّامون ، كان ذلك ليلة عيد الفطر وأنا بجانب أبي نؤدي الصلاة ، يردد عشرات الأمثال وبعضا من آيات القران، لحظت ان مجموعات من الشباب كانوا قد بدأو بإطلاق اللحى ومعظمهم يرتدي دشاشة قصيرة ، قال فوزي المجموعات السلفية تتكاثر بسبب البيئة ، المناخ يخلق أحيانا كائنات غريبة !! حاولت ان اناقش ولكن الجميع كان يرى في البيان فرصة لمخاطبة شريحة اجتماعية واسعة ، قالت وداد ، المسألة أبعد قليلا من الحالة التي عرضتها ،الحقوق ألاجتماعية والسياسية للمرأة مغيبة ولكنها مسؤولة عن صنع الفرح

للرجال ،انه مجتمع الذكور والمرأة كائن محاصر كحيوان نادر، قلت اني مقتنع وسأوزع المنشور في مدارس البنات كافة! قال فوزي , هذا لا يكفي ، يجب توزيعه في مدارس البنين أيضا ، وافقت بسرعة.

المعسكر تسوده الفوضي وقد توقفت التدريبات الصباحية بعد ان ارتفعت نسبة التغيب الى أكثر من خمسين بالمئة وشملت ضباطا من مختلف الرتب وبدا على مجموعة التوجيه المعنوي ارتباكا في حركاتهم وهم يعقدون اجتماعاتهم اليومية ، كانوا بالغي العصبية حتى وهم يدارون بالصمت مشاعرهم المحبطة، كما بفعل الطلاب الذين لا يملكون الثقة الكافية وهم يجلسون الى كرسي الأمتحان ، قال أشرف ، سيتخلون عن الوطن .... كان بالنسبة لهم مشروعا وهو يغرق الآن، نوح ترك ابنه فأ بتلعه الطوفان ، قال رياض ربما ستبدأ الحرب خلال اسبوع ! لم تنجح المظاهرات والاحتجاجات عبر العالم بالتأثير على التصميم الأمريكي بشن الحرب ، قالت تماضر ، المهم ماذا بعد الحرب والحديث عن المعارضة مناقشة بيزنطية، لم افهم ماتعنيه واصبح من عاداتي ربما السيئة السؤال ، لم أكن لجوجا ولكن وللحقيقة كان الجميع صبورا معي ، كنت قد أدمنت النظر في العينين المحايدتين وهذا لم يمنع ان أكون سريع الاستيعاب، ولكني توقفت طويلا عند خبر قيادة الممثلة رغدة لمظاهرة احتجاج، كانت جميلة ولكني لم افهم ان تحتج من أجلنا وتنسى السوريين.

قال أبي : هل ستحاربون ؟

قلت : هل جربت السباحة في الطين ؟

قال أبي : وما العلاقة ؟

قلت : في الطين ستكون مقيد اليدين

قال أبي : سمعت من الجندي في الموقع على الكتف ان الهجوم سيقع الليلة , كان محبطا ومستاء لأنه يعتقد ان القيادة تخوض باستمرار معارك خاسرة

لم أعلق فقد قال أشرف ذلك ايضا ونحن نستمع الى اذاعة يأتي صوتها متقطعا، كان الليل حالك السواد وأضواء المعسكر مطفأة والنائب ضابط و ضابط الخفر يشربان من قنينة عرق جاء بها جندي من (هبهب), كان الضوء في الغرفة خافتا والشباك الوحيد تم لصق اوراق الجرائد على زجاجه من الداخل والأثنان صامتان ، الزمن في المعسكر مشوش وكأنه لآ يعني أحدا، يعبر الليل الى فضاءات اخرى في كواكب لا ترى بالعين المجردة والترقب في الجانب ألآخر اكثر إيحاء بألأمل ولهذا فقد كانت الحركة على الهضاب البعيدة نشطة وفي الصمت الصدئ فوق المعسكر من جراء تعرضه للانتظار في رطوبة ندى آذار الثقيل يسمع أزيز رصاصة تحذير وهي تعبر الأفق بشريط خجول من الضوء الكابي.

كانت الساعة الثامنة مساء حين تركت أبي لوحدته وفي العاشرة والنصف كنت في المعسكر ، لم يدقق الجندي الخفر كثيرا ، فتح البوابة وكأنه يلومني على الحضور ، اشرف وصل قبلي ، كان يستمع للإذاعة المصرية وهي تقدم برنامجا عن عيد شم النسيم كان خليطا من ألأغاني الخفيفة والشروحات البسيطة لمعنى العيد , قلت ونحن ، ألن نحتفل بعيد نوروز ؟ قال اشرف... لا الحزب يوافق ولا السيد بوش يرضى ، كلاهما يرغب في ان نقطع التماس مع العالم وان نعيش في عش الخوف بانتظار الفرج.

كانت التلال المحيطة بالمعسكر تتموج بخضرة يانعة وحينما تشرق الشمس تلتمع قطرات الندى بوميض ساحر ، وعلى السفوح الشرقية المواجهة للأشعة الكسولة لشمس الربيع الخجلة بدأ بعض الشباب ألكرد بتجربة ملابس العيد ولاحت على البعد الوان زاهية ، هل سيأتي الفرح للعراق؟! قال رياض وأنا اصف لوحة ألألوان على التلال المقابلة .... لن نبدأ بإطلاق النار... ساد جو من الترقب الحذر كما كان يردد مذيع محطة المونت كارلو.

الليل بطيئ ، وحين تجاوزت الساعة المنتصف قررنا ان ننام فربما غيّر السيد بوش رأيه ، شعرت بوحدة موحشة وانا اتمدد على السرير الحديد على الرغم من أن عيني وداد الماثلتان ملئ خيالي في ظلمة كاملة فيما سكون مطلق يسد

الكون و يسد أذني ،ايضا ، بهمس غامض ممض كأنه وشوشة عابثة تمتحن صبري على النوم ، في المعسكر اشعر اني معزول تماما عن العالم واني مجرد جندي .... مسمار في ماكنة عملاقة أصابها الصدأ وهي مركونة دونما حاجة لها، أقاوم النظرات الفاحصة والمرتابة لأفراد التوجيه السياسي الذين توقفوا عن دعوتي للأنظمام للتنظيم ،ولكن شعوري يتبدل في ساعات اللقاء في بيت فوزي ونحن نناقش صيغة البيان الجديد ، اشعر اني أصعد مع الموج الذي يتعالى وسط دجلة ، الماء مملكتي حيث أستطيع السباحة دون أن أحرك عضلة واحدة وأعرف اتجاهي وأنا مغمض العينين ، هنا .... أتحدث عن الحركة وأساهم في بلورة التغيير ، أشعر اني موجود بكليتي ، لست طيرا مهاجرا، هنا .... أتنفس وأتمدد في كل المكان وأستمع الى لغة مفهومة تعطيني القدرة على التعرف الى خريطة وجودي ، كان اشرف يمزح ، ستتحول الى ثري، برجوازي على أطراف المدينة وستستطيع ان تتزوج من امرأة كالقشدة ولن يسألك احد عن المدرسة ! كنت افكر بوداد، حديثها ناعم لين ولكنه كشعاع الشمس يخترق الظلمة التي بقيت أوشالها في أعماقي منطقة مشوشة ، شعاع لاينتشر بل يستقر ، يدغدغ مشاعري بعبث طفولي , هل أحب ؟!

تطلع الى ساعته الفوسفورية ، كان عقربا الساعة يدوران حول الواحدة غير مكترثين ما اذا كان قرار السيد بوش سيقع أم لا أو أن استنفار القوات ألأمريكية في خليج العرب في حده ألأعلى ام مازال عند اللون البرتقالي فالحرب خارج حدود الزمن الذي تعدّه والوقت لاغيا في حساب المجانين.

حين يناقش خطة توزيع المنشورات يشعر انه قد تحرر من عقدة ألاحراج التي تجعله يداري نظراته حين يكون الحديث عابرا ، تتعلق عيناها به تنتظر منه ان يتكلم ،ربما لتمتحنه ، لكنه يفقد القدرة على المواصله ،يداخله شيء من الارتباك وتهرب الكلمات في صحراء يسكنها صمت على مد البصر ، في الغد قد تتغير مسارات على خرائط متداخلة وربما لن يكون موجودا ، عاد ثانية الى مساحة الحلم الذي يرف في مخيلته حيث تقف بوجهها الوردي تشع منه براءة عذبة فيغض عينية ، كانت امه تناديه ((قمر المدينه)) جعله ذلك يشعر بإحساس دافئ بالرضا ولكن النظرات الوقحة والساخرة في عيون زملائه في المدرسة دفعته

الى الانكماش ، احتج ولكن أمه اخذته في حضنها وقبلته , داخله إحساس دافئ فاستكان، ظل يشعر بخجل وهو يتعامل مع الفتيات في السوق ، سحب الغطاء على وجهه فقد تسللت الى عنبر النوم دفقات من هواء بارد ،

قال اشرف ، هل ستنام ؟ الليلة لن تتكرر ، انه التاريخ بكل عنفوانه ومآسيه وامجاده الأسطورية الكاذبة والحقيقية سيمر من هنا ولابد ان نكون مستيقظين لنراه فقد نكون شهودا على من يذهب وعلى من يأتي

لم يرد فقد شعر بخوف يداخله ورجفة البرد تفزع طائر الحلم الذي ضاع في الظلام ، ماذا يفعل أبوه ألآن ؟ اعتاد منذ سنوات ان ينام بعد صلاة العشاء ليصحو مبكرا يشغل(مضخة) الماء ويطعم الدجاج ويجني المحصول ويوضّبه، تذكر وجه أمه بعينيها المتفحصتين ولكن نظراتها كانت تفيض حبا، كانت تقول له وهو يستعد للذهاب الى السوق (محروس بسور سليمان من عين كل النسوان) مما دفعه الى التأكد اولامن ان عيون المرأة التي تتعامل معه لا تحسد ، لم يشك يوما بعيون الذكور ففي اعماقه شك حذر من الأنثى لأنها تحمل في طبيعتها الحسد ، كل ثرثرات النسوة وهن عند عربته عن زميلاتهن وتشوب أحاديثهن اما روح الحسد أو التشفي .

في البيت وفي المزرعة كانت أمه تدور بأيقاع يومي متكرر يحمل ذات النهج، صباحا تجمع أواني ألأفطار، ثم تذهب الى حيث أبيه قد جمع الخضروات تغسلها وتوضبها ثم تذهب الى قاعة الدواجن الصغيرة ، لم يهتموا بالقديد او بالجبن لأنهم بلا سرداب ، في منتصف الصيف كان الوضع مختلف اذ يشتري أبوه كمية من القمح من الفلاحين على طريق الشرقاط لتنشغل به مصنعة الجريش والحبية، حيث لايخلو بيت في الموصل منهما وفي الليالي الباردة كانت تشوي عروق التنور ، ولكن ذهابها المبكر ترك غمامة من الحزن الدائم وانقطعت الحبية والجريش وعروق التنور ولم يذهب في الربيع الى بير البنات ولم يحضر الاحتفالات عند مرقد الإمام قضيب البان .

عبرت قطرات المطر، الذي بدأ رذاذا ، من الشباك الكبير عند سريره، قال اشرف ، لقد انضم الى الحركة زملاء جدد وربما سيكون اجتماعنا والحرب تنشر الخراب ، سنتوسع ، الحركة نتاج طبيعي لوضعنا ، انها تعبير عن أزمة حقيقية ، لقد اعجبني تعبير فوزي وهو يشبه الحركة بصعود المد في أنهار البصرة كلما تعالى القمر ، حركتنا ستتصاعد كلما تكشفت المأساة أكثر وكلما ارتفع سخط الناس على هذا الواقع ،لم يقل له ان هذا التنظير هذه الليلة ليس إلا أحلام نوم متقطع فهي لاتكتمل ولا تكشف النهاية ، هل يسأله ماذا سيفعلون اذا ما وقع الهجوم الجوي الأمريكي ،بالتأكيد ليس أمامهم مهمات قتالية ! فالصواريخ لاتقاوم بالكلاشنكوف ولا حتى بالرباعيات التي تحيط بالمعسكر، قال مسؤول التوجيه السياسي ، القيادة اعدت خطة متكاملة لمواجهة ألأعداء ،

ولكن ماهي ؟ وكيف ؟ ،

ربما سيتركون المعسكر فالمدينه الرابضة على خط التماس مع ألكرد ، بدت منذ أكثر من اسبوع فارغة والشاحنات التركية التي كانت تنتقل الوقود قد اختفت واصحاب الأكشاك والمهربون وباعة المشروبات الغازية لم يعد لهم وجود، بدت المدينة التي كانت تضج بالحركة مهجورة تسود اجوائها وحشة مترقبة والصمت يتمدد في الليل ، حتى الجنادب لم تتكلم مع بعضها الليلة ،ولم تعبر السماء طائرات مغيرة، ربما سينطلق الجميع بحفل الموت القادم وسيمزق الفراغ المخيم تراكم الخوف الأنساني عبر شلالات الجنون والعبث ولن يكون الفراغ الذي شرحه فوزي أكثر من مساحات فارغة و سيكون ضاجا وفوضويا الى الحد الذي قد تمتنع فيه الرؤية وتتبادل المواقع ولايعود الحديث بهذا الصفاء الحالم برغم لهجة الصدق التي يتمتع بها فوزي عادة.

صرّ باب العنبر بأنين موجع وكأنه يستبق الزمن بنواح جنائزي وخطت ثلاثة اشباح لم اتبينها في العتمة بعد ان أعدت الغطاء الصوفي الذي كنت قد جلبته من البيت والذي كان مركونا على صندوق خشبي في غرفة أبي ، منذ ان بدأت أستوعب ما في البيت،كان هذا الغطاء بالوانه الزاهية ودفئه اللذيذ مفرودا على سرير والدي , قال ابي لقد حاكته امك في فترة الخطوبة ، حين سألته ولكن هل امتدت طويلا ، قال نعم، لقد أخذوني من الشارع مساء يوم صيفي قائظ الى

معسكر الجيش الشعبي في فايدة، قال مسؤول القاطع انكم تدافعون عن اعراضكم التي ستتعرض للانتهاك اذا مادخل الجيش ألإيراني.

توقف الثلاثة وسط العنبر وصاح القصير فيهم ليستيقظ الجميع ، كيف تغمض عيونكم وجيش بوش اللعين سيهاجم الليلة ؟ اين غيرتكم العربية ؟ كان النائب ضابط في التوجيه السياسي وعلى الرغم من اللهجة ألاحتفالية كان صوته اجوفا كأنه صدى ينزلق على الجدار الطيني الذي يمتص منه مخارج الحروف،

قال اشرف : الراحة تولد العزيمة ونحن منتصرون بهمة القائد

:بارك الله فيك

قال صوت أجش خافت يحمل ايحاء بانه لشخص مهم وإنه لولا الضرورة لكان الآن في أحضان دافئة مسترخيا ،

:يجب الانتباه فالليلة يصنع التاريخ العربي طريقا جديدا للأمة

توقف عن الاسترسال فقد دوى عصف وحشي هائج اجتاح سكون الليل والصمت المريب المتمدد في الكون حولنا ،

:الى الملاجئ

صرخ ضابط صغير كان قد دخل مرتاعا الى العنبر

قال أرشد : وهل ستحمينا الخنادق؟

الفصل الرابع

ثلاثة انفجارات متتالية مزقت السكون الثقيل ، توقف المطر الذي كان يأتي رذاذا ولم يعد البرد المتسلل من الثقوب التي في اطار الشباك يجرؤ على المشاكسة , وفي اذني بدأت حرارة تشع مع زيادة الطنين الذي سد مساحات السمع, كنا نتراكض بفوضى , فنتعثر بعضنا ببعض , باتجاه الخنادق الترابية التي حولتها الأمطار الى برك تغوص فيها احذيتنا الجلدية.

رفع الساعة الفوسفورية الى عينيه , كانت العقارب تشير الى الساعة الثانية وخمسا وثلاثين دقيقة , حين وجد الساعة في علبة معدنية مهملة بقعر صندوق خشبي , لم تكن تعمل , قال والده لقد اشتراها في مدينة جمجمال , كانت تدور بها امرأة كردية قد تحجر وجهها بملامح تقطر حزنا , قالت ما تدفعه , أعطاها ثلاث دنانير فلم تتكلم , كان في الجيش الشعبي وهو الاخر حزين فقد ترك زوجته وابنه الرضيع من غير ان يودعهما , وحين توقفت رماها في العلبة المعدنية فهو لا يحتاج الى معرفة الوقت والشمس هي دليله اما اذا اختفت وراء موجات الغيوم المتسارعة فان تعوده على نمط متكرر يجعله قادرا على تحديد الوقت على نحو دقيق.

كانت الإذاعة البريطانية تعلن ان مراسلها في الخليج قد افاد ان الهجوم الأمريكي قد بدأ وان دفعات متتالية من الصواريخ قد ضربت أهدافها المقررة في مناطق مختلفة من العراق وان تلك الأهداف كانت تشمل مواقع الدفاعات الجوية ومنصات اطلاق الصواريخ ومراكز القيادة والعمليات وانه يعتقد ان اسرابا من طائرات الشبح تتجه الآن الى الأراضي العراقية.

كنا جزءا من تشكيلات الفيلق الخامس وكانت المهمة التي شرحها لنا معاون قائد اللواء هي ان نبيد القطعات المعادية المتقدمة ولكن الانفجارات التي ضربت في مواضع بعيدة لم يتبعها تقدم قوات برية , كان الرد انطلاق كافة المضادات الأرضية باتجاه السماء المكفهرة وتواصل الآف من الأسلحة برد فعل خائف صانعة رسوما ضوئية غريبة.

تابعت الأذاعة البريطانية نقلا عن مراسلها في بغداد ان وسط المدينة يتعرض لهجوم صاروخي مركز وان قوات المارينز الأمريكية والقوات البرية البريطانية تندفع الآن عبر الحدود الكويتية وربما احتلت ام قصر وشبه جزيرة الفاو.

كان الماء المتجمد قد بدأ يتسبب في خدر مؤلم في اقدامنا , قال اشرف اين سنصل,كنت منشغلا بتثبيت موجة الراديو التي بدأت هي ألأخرى قلقة, قال العريف سلمان الذي سقط مرتين في برك الماء وهو يهرول الى الخندق , ملعون ابو الحرب ! كان العريف سلمان جندي محترف كما كان يردد وهو يقود التدريبات الصباحية, الحرب حرفة وهي كأي حرفة تحتاج الى المختصين بها فالخطأ هنا قاتل ! فكروا جيدا , اذا لم تحسن قيادة السيارة قد تتعرض للهلاك وفي الحرب ليس هناك (قد), ستتعرض للهلاك قطعا , ولايمكن ان تقودها لتصعد جبلا صخريا , ولا ان تقودها ودرجة الرؤية صفر لأن هذا باختصار غباء , وهذه ليست حربا , قال هذه الجملة وهو يخوض في الوحل , لم اتبين وجهه ولكن يأسا غاضبا كان يعطي كلامه صلابة تحفر في شراييـنه ويرشح في ثنايا كلماته.

أزّت رصاصة فوق الخندق لتختبئ في اكوام الطين على الحافة الشرقية , اطل فجر باهت يتدافع وسحب ضبابية منخفضة لا تريد ان تتحرك , على الجانب الآخر تبدو اشباح ضئيلة تترقب زمانا هلاميا لتتمسك به لتعبر الى المكان الجديد الذي ستدخله القوات القادمة من صحارى العرب.

إذاعة بغداد بدأت تنقل خطابا(للرئيس ألقائد) ولكنه توقف ربما بسبب قصف المرسلات , عدت ثانية الى الإذاعة البريطانية , سيارات عسكرية وعدد من المدرعات والدبابات بدأت بالظهور في حركات استعراضية , عدنا ثانية الى المعسكر , كانت الساعة تشير الى العاشرة من صباح يوم الخميس العشرين من آذار الفين وثلاثة

قال أشرف : القوات ألأمريكية تتقدم متجنبة المدن , امرا ما يتوخوه ، والتحليلات العسكرية التي استمعت اليها غامضة ولا احد يفهم هذه التحركات

توقفت التدريبات الصباحية وكذلك ساعات ثرثرة التوجيه السياسي ، ولكن الفراغ الطويل والانتظار, في توتر مستمر لساعات الموت الذي قد يجتاح المعسكر المكشوف قادما من متاهات الدمار ، افقدانا القدرة على النوم , كنا نتطلع الى السماء لنستقبل الإعصار ولكن الأيام الست ألأولى مرت دون أن يعبر الموت سماء الفيلق الخامس أو ان يهدر في ازقة الموصل , لابد من القول ان الطعام الذي يقدم لنا لم يطرأ عليه تغيير فقد بقيت كميات الخبز ألأسمر على حالها وان يك قد خالط العجينة مواد صلبة غريبة ولكن أحدا لم يتذمر فقد كان التركيز على الحرب وسماع اخبار تقدم القوات المعادية من الجنوب باتجاه بغداد يبعث على تشتت تفكيرنا , فكرت بدجلة المار تحت الكتف جوار مزرعتنا وهو يتقدم أيضا نحو الجنوب غير عابئ بالقوات التي تتقدم بامتداد الفرات نحو(الناصرية) يقول وزير الأعلام ان كل هذا الحديث مجرد امنيات لعقل مجنون غير قادر ان يفهم نبض المكان فالعدو لازال في ام قصر ونحن ننتظره على اسوار بغداد .

بدأت اولى مجموعات الهاربين من جحيم القذائف الصاروخية تصل من المناطق المحيطة بكركوك كان من بينهم (جرجيس) , قال أن وحدتهم كانت على امتداد مدينة جمجمال وعند الفجر في 28 آذار من عام 2003 تحولت الجبهة الى جهنم بكل ما فيها من لهيب وصراخ تحت جناح الفجر الأرجواني الذي كان يتطلع الى الكون ببلاهة النسيان , دقائق ويعبرهو والموت هذه الوديان ليطل على عالم آخر ربما لازال يحتفظ ببقايا بهجة في عيون السهارى , كان رفاقي قد اصروا ان اغني لهم ولم اجد غير لحن حزين في ذاكرتي ولكنهم رفضوا , قال صديق كان معي في الابتدائية وقد سكر قليلا , هناك اغنية عن جحش البلدية , وصاح الجميع : يعيش جحش البلدية, سعاد لاقت جحش ... جحش البلدية ... مو صوج هذا الجحش ... صوج هل ابنية.

قال عريف سلمان ان القوات ألأمريكية قامت بأنزال جوي للواء مظلات في مطار حرير .. كان المطار الصغير يبعد خمسة وسبعون كيلو مترا عن اربيل، وفي

الليل بدأت مدينة الموصل تتعرض لقصف متقطع شديد وفي المعسكر افتقدت بعض الأصدقاء , قال اشرف الخائف يحارب فقط حينما لايجد امامه مجالا للهرب , صدق الرفيق شكسبير , هل تعلم انهم قد كتبوا يوما ما ان هذا الشكسبير هو شيخ زبير ! وهكذا نحارب.

حينما اشتد القصف على منطقة (كلك) بدأ القلق في نظرات الضباط واصبحوا يتصرفون بلا مبالاة ولم يبدوا اهتماما بعدم قيام الجنود باداء التحية صباحا , قالت اذاعة مونت كارلو ان قوات المدينة المنورة قد جرى تمزيقها بالكامل وان الدبابات الروسية قد دمرت على جوانب الشارع العام وفي حقول البساتين ... الحرب تقترب اكثر ومدينتنا التي اعتقدنا انها ستكون اقل عرضة للدمار بدت وكأنها تتنفس رائحة الموت ... يامدينتي العزيرة سيتخلى الله عنك وستواجهين مصيرك العراقي المصبوغ بلون الدم والمضمخ براحة الدمار وهو يغير في خارطة شوارعك وبيوتك القديمة .. هل سيظل النبي (يونس) يتطلع الى مأساتك وهل ستدخل امواج الدماء المستباحة الى اعتاب الضريح

الجبهة الشمالية تتحرك الآن بسرعة , مواقعنا تتعرض للقصف , مدينة فايدة شمال الموصل دمرت العديد من مبانيها السكنية والقوات الكردية تتحرك على الطريق بين جمجمال وكركوك وانفصلت مجموعة منها مدعومة من قوات المظّليين الأمريكية للأستيلاء على مشارف المدينة الصغيرة , مساء كنا نتحرك على شكل مجموعات سيرا على الأقدام الى الموصل , ليلا كانت مساكن المدينة كأنها امكنة اشباح تحيطها وحشة يمتد صمتها الحزين الى ألأطراف القصية ويعبر دجلة الى الجزيرة التي تنفتح نحو السماء بحنين لامتناه خوف القيامة التي تحملها رياح الموت في الفجر ألأرجواني.

قال اشرف : غدا سنجتمع في بيت فوزي قبل الظهر

لم أرد ، قال جرجيس : لآ اعرف العنوان

قال أشرف : رتب الموضوع مع سمير

قال جرجيس : ولكن ما هي المناسبة؟

:نحن نعمل في تنظيم سياسي ونحاول ان نستبق الكارثة

لم يعلق جرجيس ولكنه سار الى جنبي بهدوء ، عبرت ثلاث طائرات سماء المدينه الغارقة في صمتها

قال جرجيس : هل ستحضر ؟

:نعم

:ولكن هل تعتقد ان الموضوع آمن ؟

:لا ، ولكن اين ستجد ألأمان ، انتظرك في البيت

ودعته بفتور فقد كنت مشغولا بالتفكير بوالدي الذي يحلم بان اتزوج امرأة تساعدنا في البيت وباحفاد ،يعوضوه وحدته وخوفه الدائم عليّ من الغرق فتتوقف سلالته وينقطع امتداده في الحياة.

كانت دجلة تلصف في العتمة الموشاة بخيوط دقيقة من ذيول الرصاص الذي ينطلق بين آونة واخرى كأنه يطارد أرواحا شريرة عصية على الرؤية ولكنك تحسها وهي تتحرك بفحيح يلفح بشرتك برائحته الثقيلة الماكرة

كان ابي مستيقظا , رآني من الشباك المغلف بورق الجرائد المصفر من المطر واشعة الشمس , فتح الباب ورائحة التبغ القوية تتقدمه

:مع هذه المرة حقيبة ملابسك ،هل انتهت الحرب؟

كان الزمن ضبابيا تتعثر فيه الصور والأحداث فهو لا يكترث للعالم خارج المزرعة، وثنائية حيانه تعيش حالة انفصال فهو يعرف كل نبتة في المزعة ويقف عند شجيرات الزيتون ودوالي العنب يفحص اوراقها ويستخدم المواد اللازمة لمكافحة الحشرات ويعرف كم أعطت الدجاجات البياضة في الأسبوع ولكنه لا يبذل اي جهد لمعرفة ماجري في المدينة وعلى الرغم من انه ليس اميا فهو قد انهى الدراسة الابتدائية ويواظب على قراءة القران مع كل فريضة صلاة

الا انه لم يقرأ اية جريدة منذ سنوات ولا يرغب بالاستماع الى نشرات الأخبار وكأن العالم يدور حول نقطة ثابتة لا تشتمل على اية إمكانية للتغيير , الحياة خارج المزرعة مساحات للجنون لا يريد ان يدخلها و يتعامل معها بحذر.

:لا لم تنته , انها في البداية ولكن المعسكر أخلي بالكامل ومن المنتظر ان تدخله القوات الأمريكية قريبا

:وهل سيبقون فيه ؟

:لا ادري

:هل تعشيت؟

:لا ولكني لا أجد في نفسي رغبة بالطعام

فوجئت وانا ادخل بيت فوزي ، كان العديد من الأشخاص في الصالة التي اكتظت بهم , اخليت الصالة الواسعة والتي كانت غرفة استقبال وصالة طعام , من أثاثها وصف بدلا عنها كراسي بدون مساند على شكل صفوف متتابعة والى الحائط امام الكراسي كانت منضدة صغيرة خلفها ثمانية كراسي , استقبلني فوزي بترحاب حاول ان يكون علنيا وملفتا بحيث تطلع الجميع نحوي , قال فوزي بصوت مرتفع غطى على الضوضاء للأحاديث المتقاطعة.

:الرجاء من أعضاء الهيئة العليا للتجمع اتخاذ أماكنهم الى المنضدة

كنت أجلس الى جانب وداد التي بدت محرجة وهي أمام انظار الجميع ،شعرت بدفئ قربها مما خفف من هواجسي بمواجه هذا الجمع الذي أعرف بعضهم وانا طالب في المتوسطة ، فقد كانوا من المدرسين واثنين من أصحاب محلات بيع المواد الغذائية في السوق وبعض الضباط الصغار وطلاب من جامعة الموصل، وكان هناك أيضا بضعة شخصيات ترتدي الأزياء العربية وثلاث نسوة.

قال فوزي : ايها الأخوة اسمحوا لي اولا ان اشكركم على تلبية الدعوة لحضور هذا التجمع واعتقد انكم قد اطلعتم على اهدافنا مما ورد في البيانات التي كنا نوزعها في الأيام القليلة السابقة،

الذين يجلسون امامكم ....هم الهيئة المؤسسة للتجمع الديمقراطي والذي هو حركة سياسية هدفها التحضير لما بعد الحرب ولمواجهة التبعات التي ستنجم عن الاحتلال ولسد جزء من الفراغ السياسي المتوقع حصوله

رفع شاب من الطلاب يده مستأذنا بالسؤال

:ولكن هل ان الهيئة منتخبة ؟

:الهيئة مجموعة لبّت الدعوة وتطوعت للعمل ولم يكن امامنا فرصة لأجراء انتخابات ولكن العمل وزع بطريقة ديمقراطية , بالتأكيد سيتم تغيير هذه الآلية بعد ان نتوسع في القاعدة الجماهيرية.

جرى نقاش واسع حول مجالات العمل وكيفية مواجهة دخول القوات الأمريكية وحلفائها الى المدينة , قلت انا كجندي اعرف ان امكاناتنا في المواجهة معدومة في الوقت الحاضر على الأقل وقال احد الضباط هذا بالضبط ما وددت شرحه اذ انه من البديهيات ان القوات البرية لاتستطيع مواجهة تفوق جوي ساحق

قال رجل يرتدي الزي العربي يجلس في آخر الصالة : ما يجب التأكيد عليه هو وحدة الرأي والعمل على تجنيب المدينة ويلات هذه الحرب

:اذا ، نحن متفقون على دعم الحركة التي تحضرون اجتماعها مبدأيا , ومتفقون على مساعدة المدينة , لهذا يجب اختيار مجموعة من الحاضرين من اربعة اشخاص لتمثيل الحركة أمام الجهات المعنية

بدأت بعض الأنفجارات تهز المكان وظهر القلق على بعض الحاضرين , دخل ألأخ ألأصغر لفوزي وهو بادي ألأرتباك , قال بأن القوات الكردية قد استولت على(فايدة) وانها تستعد لأقتحام الموصل, بدأت اصوات الأنفجارات تسمع بوضوح.

قال فوزي : ايها ألأخوة الموصل ألآن تتعرض لقصف جوي شديد ومن الواضح ان كافة النقاط العسكرية مستهدفة وكما تعلمون فان بعض هذه النقاط في مناطق سكنية وسيعرض هذا المدنيين لمخاطر كبيرة ونحن عاجزون عن تقديم اي عون

بدا فوزي لي كقائد اسطوري من زمن منسي يقف وحده لم يفقد ألأمل بعد , كانت روح قيادية تتجلى في سلوكه وردة فعله كانت سريعة الاستجابة وعملية

:علينا ان نفعّل افكارنا وان نتصرف بمسؤولية ولهذا اقترح ان نختار أربعة اشخاص كوفد يمثلنا في لقاء قائد الفيلق الخامس وامام جامع النبي يونس ورئيس جامعة الموصل للتوصل الى راي بالكيفية الواجبة لمواجهة هذا الطوفان القادم

أيّد الجميع المقترح

قال فوزي : على الشيخ هادي أن يناقش الموضوع أولا مع مشايخ العشائر في الموصل والجزيرة وخلال ثمان واربعين ساعة , الأستاذ رياض وعليه ان يناقش الأمر مع نقابة المعلمين , السيدة تماضر تستمزج رأي المنظمات النسائية التابعة للأحزاب السياسية والتي تتحرك الآن بعلانية في المدينة أما زميلنا سمير فعليه أن يقوم بالاتصال بقيادة الفيلق الخامس للحصول على موعد للقاء السيد قائد الفيلق او من في القيادة بديلا عنه

شعرت اني اتعرض لرياح تهب رخوة منعشة تتسرب الى روحي وتبعث في كياني شعورا مشرقا وكأني قد استكملت بنائي الداخلي واني على استعداد للانطلاق في مهام حياتي الجديدة التي جمعت شظاياها منذ ان توطدت علاقتي بفوزي , فور انتهاء الحرب سأعود للدراسة وسأمتحن (خارجي) وسأحصل على الثانوية , كانت وداد تتطلع نحوي بتركيز وعيناها المحايدتين ثابتتان تتفحصاني , كانت تشجعني وكأنها توافق على ما يدور في كهفي السري , حسنا قد اذهب الى الجامعة , رأيت في نظراتها اقتناعا , ولكن ماذا سأدرس , كان ابي يحلم بأن اكون محاميا , ذهب مرة الى المحكمة ليحضر شهادة صديق له ورأى المحامي يترافع , كان يتحدث بطلاقة ويحرك يديه على نحو انيق وكأنه ساحر يبهر مشاهديه ، كان الجميع ينصتون.

أمرني الجندي عند البوابة ان اترجل من السيارة وان اسجل اسمي والغرض من الزيارة , نظر نحوي باستغراب وانا اسجل رغبتي بمقابلة قائد الفيلق , قال ولكنه لا يستقبل احدا نحن في حرب , قلت من اجل الحرب اريد مقابلته ويمكنك ان تتصل بالضابط الخفر لتعلمه اني ممثل حركة التجمع الديمقراطي في الموصل , قال الضابط ليدخل , جلست على كرسي منفصل في الصالة , قال الضابط من هو مسؤول الحركة , حسنا ولماذا تطلب المقابلة ؟ , قال القائد على جهاز موضوع على المنضدة ليدخل.

لم اشعر بالخوف وانا أرى كل تلك النجوم الذهبية والنياشين على صدره , كان طويل القامة في عينية نظرة حزينة ربما بسبب القهر الذي يعانيه وهو حبيس في المقر , كان هادئا الى الحد الذي جعلني افكر انه قد يختفي بأبة لحظة بسبب , الفراغ الذي ولدته أ لأحداث , انه يذوب ببطء

قال بصوت عميق رنينه مكتوم : اتفهم مشاعركم وقد استلمت طلبات من جهات شعبية أخرى للإجتماع والتداول , حسنا يمكنكم الحضور غدا الساعة الثالثة , كم عددكم؟

قمت بعملية احصاء سريعة ولكني لم اتوصل الى قرار

:نحن ثمانية من مختلف شراح المجتمع في الموصل

:حسنا , يمكنك اخذ التصريح من السكرتير

قال اشرف : لقد نجحت , انت ألان وجه سياسي معروف

قال رياض : الأحداث تخلق قادتها

قال فوزي : علينا ان نتحرك بسرعة ويجب معرفة نتائج مشاورات الشيخ هادي

مساء كنّا في حالة اجتماع مفتوح , جاء الشيخ هادي ليخبرنا إن العشائر في الجزيرة توافق على تفادي الحرب ما دمنا لا نملك خيارا لأفضل , وقالت تماضر انها تستطيع أن تؤكد ان ثلاث منظمات نسوية توافق على اجراء مباحثات مباشرة مع الأمريكيين، حيث ترابط قطعاتهم على حدود المدينة ,

كانت نقابة المعلمين قد امتنعت عن إعطاء رأي بسبب ان ألأمين العام في بغداد

كانت الأخبار القادمة من بغداد مؤلمة فقد دخلت الدبابات الأمريكية قلب العاصمة وانها رت كلية مقاومة الجيش وذابت القطعات الجرارة كحلم مجنون بالغ العنفوان واتسعت مساحات الحقد والجريمة وبدأ عصر الدماء المستباحة مجانا , ان الله لا يكلف نفساالا وسعها ولكننا كلفنا في هذا الزمن تحمل شقاء الموت وتعاسة الحب , في عيوننا ونحن نستمع الى الأخبار كانت ظلمات تسد منافذ الأمل.

قال فوزي : لنتحرك بسرعة , سنذهب الى الموعد

ثانية تشدني روح القيادة الفاعلة عند فوزي

كان اللقاء حزينا وفي غرفة القائد سبقتنا مجموعة من ممثلي الجمعيات والأحزاب وبعد مداولات قصيرة ومحبطة تم الاتفاق على ان نقوم بزيارة قائد القطعات ألأمريكية لترتيب امر دخولها الموصل دون مقاومة اوقتال , تكلم القائد بصوت مليئ بالمرارة , هل رأيتم عسكريا مخذولا؟

وافق ألأمريكي, الذي كان يتكلم بهدوء موحيا انه لا يكترث للموقف بجملته فالحرب انتهت بسقوط بغداد وان استسلام قائد الفيلق وأعيان المدينة هو تحصيل حاصل ويجب عدم الإختباء وراء المشاعر , والوطنية هي صيانة البلد وبنائه, بدأ يظهر ودا واضحا ليخفف عنا , كنت أول مرة في حياتي أشاهد أمريكيا , كان فوزي يقوم بالترجمة , لاحظت ان هناك فرق واضح في اللهجة , قال فوزي لاحقا، لقد تعلمت في ويلز حيث اللغة ملتوية في نطقها.

دخلت القطعات الأمريكية ترافقها بعض قوات البيشمركة الكردية ومجموعة من المترجمين لتحتل مركز المحافظة ولتعلن عن تعيين محافظ من الذين دخلوا العراق معهم وتنصب سيدة كردية ممثلة للإدارة المحتلة , قال الشيخ هادي هذه أولى الخطوات في الاتجاه الخاطئ , تقودنا امرأة ؟؟

قالت تماضر : شيخ هادي نحن في التجمع لانفرق بين المرأة والرجل في تولي المسؤولية ولكني معك ان الأمر محرج في الموصل حيث القناعات لازالت تعاني من سيطرة التراث وذيول الحملة الإيمانية.

في اليوم التالي شوهدت الدبابات ألأمريكية على مفترقات الطرق وفي وسط المدينة , قال ابي , تبارك الله اننا نخطوا الى مقدمات القيامة , كيف سيستطيع غرباء حماية المدينة.

في بناية شعبة لحزب البعث استقرت حركة التجمع , ازيلت كل التسميات والشعارات السابقة ورفعت بديلا عنها لافتة كبيرة باسم الحركة ووزعت الغرف على فعاليات التنظيم , كان فوزي يدور طوال النهار يبشر بافكار الحركة ويدعو اصدقائه ومعارفه لزيارة المقر ويشرف على طبع البيانات ويترأس الندوات مساء , كلفني بأن استطلع آراء الناس واجمع وجهات النظر واراقب الأحداث , في الغرفة المخصصة للحركة النسوية كانت تماضر تجيب عن الأسئلة فيما تقوم وداد بإعداد الغرفة وتنظيفها , قال جرجيس , ولكن متى يأتي دوري , هل ستعدون لحفلة ؟ , أشرف كان يقوم بمراجعة لغوية للبيانات , كنا نؤمن اننا سنستطيع توجيه الأمور في المدينة بمدة قياسية , ولكن ما حدث كان ابعد من تصوراتنا واكبر من قناعاتنا , بدت المدينة صباح السادس عشر من نيسان وكأنها على موعد مع مس من الشيطان , منذ الصباح الباكر كانت جماعات تعمل على خلق الفوضى ونشر الخراب في كل مكان , كانت ألأحداث تتسارع وكأن شيطانا مجنونا يدفع المدينة باصرار ماكر نحو مستنقع بربري متعطش لمزيد من الدماء و الخراب , كنت في المقهى , على الناصية عند تقاطع شارع الداوسة بشارع نينوى كانت دبابة امريكية يدور فوقها رشاش ثقيل وعلى مقربة منها بضعة جنود وعدد من رجال البشمركة , لم يبدو عليهم الاهتمام بما يدور , بدأت الجماعات التي تحكمها هستيرية وكأنها في مشهد معزول تحطم واجهات المحال التجارية وتدمر المحتويات على نحو عبثي , صعدت فرق منهم الى مكاتب الأطباء وانتشرت في الشارع قطع ألأثاث والمعدات الطبية , كان الجنود يتطلعون ببلاهة , قال رجل كان الى جانبي , زخة رصاص في الهواء وسيتوقف الجميع , قال شاب يرتشف شايه بهدوء , لن يتدخلوا انهم يراقبون تفريغ شحنة الثأر وتجاوز عقدة الخوف ! قال رياض كنا نتمنى ان لا يسقط النظام بفعل ثورة

شعبية لأن الثمن سيكون باهضا , وانا أتطلع الى مايحدث في المدينة التي تعيش زمن بدء العاصفة فكرت بالثمن الذي يتوجب دفعه , هتف بضعة شباب مسلحين بالعصي , لقد فتحوا البنك ! كان لابد ان اتابع المشهد , باب مصرف الرافدين مشرعة وفي الداخل مجموعة تعمل على كسر الأقفال الداخلية وتعالج الخزانة الحديدية المرصوفة الى الحائط , صرخ رجل اصلع هبطت كوفيته على كتفيه ورفع اكمام قميصه الى اعلى , ليتراجع الجميع , لن نضيع الوقت بهذه السفاسف , سننسف (القاصة) , دوى انفجار صاخب وتناثرت قطع الأسمنت والآجر فيما اندفع العشرات الى الطابق الأسفل كإعصار فقد مركزه يضرب بكل اتجاه , اي زمن هذا ! وكيف سنسمي الأشياء والأماكن والبشر , قال فوزي , قد نغير معاني الكلمات , هكذا هي التحولات الكبرى في التاريخ ! لم اعلق , كنت اتابع المشهد , ظهرت اولا رزم من الدنانير من فئات مختلفة , كانت الرزم مرصوفة بعناية ومضغوطة الى بعضها لتأخذ اقل حجم ممكن , بدأوا بفك الرزم ونشر العملة الورقية في الشارع لترسم صورا سريالية على الشارع الأسفلتي ولتتطاير مختبئة في جوانب الرصيف الإسمنتي أو جدران المحال المغلقة لاعنة ألأقدار القادمة من عمق الظلمة والرحم السري للتاريخ , لقد قبلت السقوط المدوي لها لكونها بقيت تلاقي قليلا من دفئ الأيدي وحرارة الرغبة في احتوائها أما ان يدفعها زمن الانحطاط ان تكنس الشارع فهذا ما يشعرها بالهوان وتبحث عن مكان تلوذ به , تطلع الجندي ألأمريكي بشيء من الفضول ولكنه لم يتحرك , قال رجل في الستين خمنت انه لا يرغب بحلاقة شعر رأسه الرصاصي وانه معجب بحواجبه الكثة وشعرها المتنافر , انهم يبحثون عن الذهب ، لقد سقطت العملة.

تقدمت بضع سيارات تتقدمها إحدى سيارات الشرطة , المحافظ الجديد يستشرف ألأمر , توقف الجميع عن الحركة وتجمد المشهد , قال المحافظ , اغلقوا أبواب المصرف , وعلى الأخوة مغادرة المكان , سنرسل فرقة لجمع الحطام والمخلفات , ذاب الجمع كقطرات المطر في يوم دافئ ومشمس تركوا آثار الأعمال التي مارسوها بهوس مجنون ولكنه بالغ التفاهة تماما كمطر الصيف الذي لا يترك الا رائحة التراب

كان المحافظ الذي دخل المدينة مع القوات الأمريكية يحتفظ بوجاهة البرجوازية في بلدان العالم الثالث , كرش كبير وصوت جهوري زاعق ونظرة ‘إستهانة تحمل ملامح قوية لتربية قاسية ولكنها غير سوية , لم يكن وجهه مغضنا , كان املسا يعطي انطباعا بوقاحة سوقية , لم افهم ما قاله بالإنكليزية للجندي الأمريكي الذي لم يرد عليه.

بدا على المحافظ شيئا من الإرتباك والحيرة ولكنه تمالك نفسه ملتفتا الى المجموعة المسلحة التي كانت ترافقه

:ليعمل الجميع على رفع الحطام

دخل في بناية المصرف وإغلق الباب خلفه بهدوء في حين وقف ثلاثة مسلحين ببنادق رشاشة عند الباب , شعرت إن أمرا ما يحاول أن يرتبه فهل سيتفهم عمليات النهب ليضفي عليها حماية رسمية ، كان فوزي يردد وهو يسمع بنبأ تعيين المحافظ ، لا .... هذا تجاوز لن يستمر ، الرجل ليس فوق الشبهات كما إنه ليس من المدينة ، في الموصل تعودنا أن يكون الحاكم من المدينة ولم يحصل ان جاءها حاكم مستورد ، هل ستستمر سلسلة ألأخطاء ألأمريكية

قال فوزي : انت واشرف عليكما ان تحضرا غدا الساعة الثامنة الى مقر الحركة وارجو ان تؤمن اخبار اشرف ,لدينا امور مهمة يجب التداول بها على اضيق نطاق قبل ان نطرحها على الحركة

لم أستفسر عن تلك ألأمور فقد تعلمت ألا اطالب بإيضاحات بعد أن اصبح فوزي وباستمرار على درجة عالية من المسؤولية

عدنا ثانية الى مبنى الحركة

عند المدخل استوقفنا ثلاثة حراس مسلحين ببنادق كلاشنكوف

:الى اين ؟

:نحن من اعضاء الحركة

:أهلا بكما ولكن هل تحملان تخويلا بالدخول ؟

كان الموضوع ملفتا على نحو أصابنا بالذهول

قال أشرف : حسنا هل ألأستاذ فوزي بالداخل ؟

قال الحارس :نعم

:إخبره اذا إن اشرف وسمير عند الباب

:حسنا يمكنكما الانتظار

جاء فوزي يعتذر وقال الحارس : انا آسف

قال فوزي : لابأس لقد تطورت ألأمور بسرعة أرجو أن تتفهما الوضع وبالطبع لن يتكرر ألأمر

تبعناه دون تعليق ، في الغرفة المخصصة لأمين الحركة جلسنا نترقب شرحا عن التطورات

قال فوزي : تعلمان ان الحركة قد حققت حضورا في الساحة السياسية في المدينة ولهذا فقد استدعيت الى المحافظة عصر امس وقد تحدثت معي السيدة ممثلة الإدارة ألأمريكية بصراحة وقدمت لنا مساعدة مالية لدعم نشاطات الحركة وطلبت ان نقوم بتعيين عناصر لحراسة المقر وبعض الموظفين للعمل الإداري وان نحاول تكثيف نشاطنا الجماهيري واعتقد اننا بحاجة الى سيارة للتنقلات والى دراجة بخارية للأخ سمير لأنه سيكون مضطرا للكثير من الحركة

شعرت بشيء من ألإرباك حينما تطلع أشرف نحوي متسائلا وكأني أسبح في عوالم ملونة دونما تناغم وأن أرضية المكان عارية الا من صقيع يبعث القشعريرة , وحين مضى فوزي يشرح المبررات كنت اواصل السباحة غاطسا رأسي في مياه هلامية تنبعث منها رائحة الخراب وأني اختنق لتعذر التنفس

عند البوابة الرئيسة كانت وداد يستوقفها الحرس , عيناها ودودتان وعلى خديها تركت نسائم الصباح الباردة حمرة مشرقة كزهو الشقّيق على الروابي المحيطة بالمدينة في شهر نيسان من كل عا

قال الحارس : الأخت تقول انها معكم

:نعم , دعها تدخل

حدّقت في وجهي فيما لاح في عينيها وميض أخاذ

:شكرا لدي اولا ما ادو قوله لك

:ولكن ليس في نيتي العودة الى المبنى

ولا انا :

:هل سنسير في الشارع ؟

:لا .... سندخل مطعما على الشارع وهو يقدم إفطارا من الكباب والسلطات , كنت أحيانا أرتاده مع بعض فتيات القسم الداخلي

:انت مدعو , دعك من الرسميات ألآن

في المطعم الصغير كان بضعة طلاب يتناولون إفطارهم بصمت على طاولات خشبية مغطاة بشراشف رصاصية نظيفة وكان النادل يبتسم على نحو ذكرني ببعض لعب الأطفال التي رسمت على افواهها بقايا ضحكة ليس هناك ما يبررها , وفي الشارع العام كان عددا من الجنود الأمريكيين والكرد يتبادلون الحديث وايديهم على بنادقهم

:ما دفعني الى الاصرار على اصطحابك هو الحالة الرهيبة التي كنت عليها , كان وجهك ممتقعا وعيناك زائغتان وكأنك خارج للتو من كابوس مرعب , كنت كمن يهرب من ملاحقة مميتة

:شكرا , آسف لأني سببت لك ازعاجا

:هل تود ان تحكي لي ام نؤجل ذلك الى ما بعد وجبة الكباب واثناء تناول الشاي

:سأحكي ولكن على شرط ان ادفع انا الحساب

:جميل وسأحتفظ بمبادرتك هذه كذكرى

بدأ مطر خفيف اخذت قطراته المتتابعة تعكس اشعة الشمس التي لازالت تتقدم في ارتفاع الواجهة العريضة للمطعم وترك الجنود محلهم ليقفوا تحت مظلة شرطي المرور وسط الساحة المعشوشبة عند التقاطع

:ماذا تستنتج من ذلك ؟

قالت متسائلة وهي لازالت تحدق باهتمام بالغ في عيني

:هل رايت مرآة صقيلة مزهوة بلمعانها حينما يصيبها شرخ ؟

:ها انت شاعر , كنت اعتقد انك رجل المهمات الصعبة في الحركة ولكنك تنافس حمدي الذي يصر على نظم الشعر رغم انه طالب في الهندسة

شعرت بموجة سرور تداخلني من المسارب التي أحدثها رد الفعل على ماسمعت

:اننا في حركة ديمقراطية وهذا يعني ان من حق اي منا ان تكون له قناعات وأن هذه القناعات تتشكل عبر رؤية موضوعية للواقع وبالتالي فانه ليس بالضرورة ان تكون رؤيتك متطابقة مع رؤية فوزي

اتتبعك ببطء وما افهمه اننا في تنظيم واحد ومصيرنا متعلق ببعضنا البعض : وهذ يستدعي ان نتحاور قبل اية خطوة عملية

هذا صحيح , وكان عليك ان تناقشه لآ ان تغضب وتترك اللقاء , لم يطلب مني : ان احضر معكم على الرغم من أن هذا من حقي ولكني لن اغضب لأني أتفهم الدوافع.

كان الشاي امامنا يبرد ومعظم الطلبة غادروا المطعم والجنود تركوا موقعهم وصوتها ينساب واثقا ينشر في روحي طعم اللوز ورائحة النعناع , تطفو الكلمات ملونة كزهور البابنك بقلبها الأصفر الرقيق قبل ان تلامس مسمعي , ومع المطر الربيعي الذي بدأ يتسابق في الوصول الى الأرض شعرت اني احبها.

:سأطلب شايا جديدا ولكن على حسابي.

ابتسمت برضى يلف كياني كله , التواصل الان موشى بظل شجرة جوز متشابكة فلا المطر يهبط ولا الشمس ترشح أشعتها وليس غير تغريد هامس يتطاول على امتداد الفضاء بيننا .

الفصل الخامس

المدينة تغرق في الظلمة ، أبي يشتكي من عدم توفر البنزين لمضخة الماء، وبائع النفط الأبيض لم يعد يدور بعربته التي يجرها حصان يعاني من العرج ويعلن عن وصوله بالضرب بقضيب حديدي على برميل النفط ، عليّ ان أوفر البنزين من الباعة الذين انتشروا كوباء غير معروف المصدر على الطرقات الخارجية ،الذين اكتسبوا خبرة بوقت قياسي في مزج الماء بالبنزين ، اما عند محطات التعبئة فالسيارات تشكل طابورا يمتد ويدور ملتفا وكأنه يرفض ان يعلن عن نهايته ،وعامل التعبئة يرفض البيع لحاملي الحاويات البلاستيكية الذين يحتاجوه لبعض الأعمال المنزلية أو كحاجتنا الى تشغيل مضخة الماء لأن هذا مخالف للقانون.

بعد السادسة مساء تتوقف حركة السير على الشوارع ،لأن في هذا خطورة، على الرغم من الدوريات ألأمريكية ، وفي ساعات الصلاة يوم الجمعة سادت ظاهرة جديدة اذ يمكن مشاهدة العشرات من ذوي اللحى والثياب البيضاء القصيرة يغطون رؤوسهم بكوفيات بيضاء ويبسملون بمسابح مختلفة الألوان كأنهم طيور (السند والهند) ألتي تغزوا مدينتنا كلما حل الربيع، لم تكن تطير بخط ثابت بل . تستمر بتغيير اتجاهها كل لحظة ولكن مراقبتها تثير في النفس الملل

قال أبي : ان زمنا غريبا يطل علينا لم نألف مثله من قبل فحتى قنينة النفط الأبيض للإضاءة أصبحت صعبة المنا ل ولهذا لا يمكن أن وقد (فانوسين) حينما يهبط الليل، واحد في الداخل وانا استمع الى المذياع الصغير والثاني عند الباب كما افعل عادة ، ومن حسن الحظ ان الصيف على الأبواب وان زمن البرد قد انتهى ونأمل ان تحل هذه المشاكل خلال اشهر والا فلا يعرف الا الله ما يمكن ان يحصل.

قال الشيخ عبد الله وهو يحتسي الشاي مع أبي : لماذا لا تحضران الى صلاة الجمعة ؟ الشباب عموما هداهم الله ومن المفرح ان يكون الأيمان ظاهرة عامة.

كان أبي متسامحا في أمور الدين ولكنه يحرص على صلاة الفجر لا يعيقه برد الشتاء القارص ولا حلاوة النوم الدافئ فجرا غير انه نادرا ما يذهب الى صلاة الجمعة.

تابع الشيخ عبد الله وهو يتطلع نحوي بتفحص : لقد سمعت ان سمير ينشط مع جماعة سياسية ؟

:ليس بالضبط

:ولم لا ، ان هذا يعني انك تملك فكرا ورأيا والمهم هو ماذا تريد وكيف لهذا الذي تريدة ان يتحقق

:حسب القناعات

:لا أفهم

تذكرت حديث وداد وهي تلخّص كيف يتولد الفكر الذي كانت تسميه الوعي الذي يعطينا قناعة معينة نؤمن بها ونعمل على تحقيق أهدافها.

:أعني ان لكل انسان قناعة معينة

:ولكن ماذا بشأنك ، أية قناعة تولدت لديك ، العمل مع ألأمريكيين مثلا ؟

:ليس بالضرورة وانا لم اقرر بعد

:يا ولدي لماذا تتعب نفسك وتبحث لتتوصل الى قناعة هي أصلا محددة بما خطه لنا الباري عز وجل ، هل هناك أفضل من أحكام الدين وهل هناك قناعة افضل من الإسلام ؟

.كنت أجرّ الى منطقة مشوشة في ذهني لم يكتمل بناؤها بعد

حين أخبرت فوزي بزيارة الشيخ عبد الله قال بانه سيعطيني مجموعة من الكتب والكراريس التي علي ان اقرأها بجدية ، وحينما تصفحت المجموعة كانت متباينة في مضامينها بعضها يتحدث عن الديمقراطية وبعضها عن الإسلام السياسي وأهمية الدين في حياة الشعوب وبعض البحوث التاريخية ومشاكل

الحكم، كانت علاقتي بالحركة قد تم إصلاحها ولكن ليس على نحو متين فقد كنت . قد أصبحت اكثر شكا واكثر حذرا

في المطعم الصغير قالت وداد : ها أنت ترى ان المدينة ليس فيها مكانا للّقاء بين رجل وامرأة فالمقاهي للرجال والأماكن العامة أصبحت تشكل خطرا على مرتاديها والناس بدأ يظهر عليهم بوادر اضطراب عصابي ربما بسبب الخوف والذعر الذي يسيطر الآن على المدينة التي كانت تحكمها علاقات عشائرية ثابتة،

أصبحت أكثر إدراكا إني قد تعلقت بها وإني يمكن ان أخمّن إنها ترتاح الى لقائي واني أستطيع ان أحصل على حياة أفضل لأرتبط بها ، مثل هذا الحلم كان يجعلني وانا انصت اليها، أشعر باني في أرض تعبق برائحة زهر الرمان والقداح وان ما أ سمعه هو خرير يأتي من بعيد تسبقه زقزقة العصافير وان السماء خليط من ألوان عدة يمتزج فيها الأزرق الزاهي بالأرجواني الذي تتركه الشمس وهي تجنح للغروب وان ابتسامه مشرقة تلف المكان برغم الصوت الثقيل لجنازير الدبابات ألأمريكية وهي تجتاح الشارع الأسفلتي العريض وتوقف محطة توليد الكهرباء عن إمداد المدينة بالطا قة الكهربائية واجتياح الظلام لفضاء الموصل مبكرا وشكوى أبي المستمرة من نفاذ النفط للفانوس وتوقف عمليات الري لألواع الخضروات لعدم وجود البنزين ، كنت سعيدا وأنا المح في حديثها تشجيعا غير مباشر.

قالت ان أبيها عامل مناجم في كبريت المشراق وان أمها تساعد في تكاليف المعيشة بالخياطة للجيران وان بيتهم قطعة ارض منحت لأختها الكبرى المعلمة .....في بغداد

ألآن نقطتان هما المتبقيتان ،ان أمتحن خارجي نهاية العام وأن التحق بالدراسة الجامعية بعد ذلك وكلاهما في الممكن,

كان أبي مهموما ، قال انه لا يعرف المدينة اليوم ولا يعرف كيف يتعامل مع الحياة الجديدة واننا بدون اضاءة والمذياع قد انتهى عمر بطارياته والخضروات بدأت تذبل وانا غارق في السياسة.

لم اناقشه اخذت الحاوية البلاستيكية وغالون الصفيح وعدت ثانية الى شوارع المدينة التي تصمت تماما بعد السابعة مساء

حين عدت كان أبي نائما ، اوقدت الفانوس وشغّلت مضخة الماء وأدرت مؤشر المذياع على الإذاعة المحلية لمدينة الموصل التي كانت تقدم اغنية (فوك النخل)

الاجتماع العاجل الثاني كان لمناقشة بيان الحركة الإسلامية بتشكيل فرق للمقاومة ولدراسة أسباب زيادة وتيرة العداء الشعبي لأداء المحافظ ، كانت هيئة قيادة الحركة قد ارتفعت الى خمسة عشر شخصا روعي في اختيارهم التنوع لتمثيل كل الشرائح الاجتماعية في المدينة

لخص أشرف ببراعة الموضوعين وقدم في النهاية تصوراته الخاصة لمسار كل موضوع وبعد مناقشة طويلة اتفقنا على ان نؤمن جسور اتصال بالحركة الإسلامية التي تملك قواعد ثابتة في المدينة بسبب الدعم الذي تلقته من النظام السابق ولوجود ما سماه رياض ، قاعدة لوجستية وآليات للدعوة والتحريض المتمثلة بالجوامع كمكان لقاء وبالخطباء كركائز اتصال مؤثرة بالحماهير ، أما بالنسبة للموقف من المحافظ فقد اتفقنا على ان نقف دون تحفظ مع الموجة المطالبة بإقالته بل ذهب فوزي الى أبعد من ذلك فاقترح ان نكون عنصرا فاعلا في هذه المواجهة.

كانت وداد تجلس في الجهة المقابلة وكنت أحاول ألا أحدق في عينيها لأن ذلك يصيبني بشيء ما أشبه بالدوار الخفيف الذي يقلل من قدرتي على الإستيعاب، كانت حواسي(حينها) تتوجه الى عوالم حالمة ويصبح الهواء الذي يتسرب من فضاءات تلك العوالم منعشا يبعث نشوة في روحي ، ولكني سرعان ما أعود محاولا السيطرة على مشاعري فأركّز قدمي في الأرض بقوة أو أغرز أظافري في كفي ضاغطا بعنف على أحاسيسي كي لا تظهر على وجهي.

:لدي ما أود اخبارك به

دخلت غرفتي في مقر الحركة بعد انتهاء الاجتماع

ماذا ؟

قالتها بعجلة ، ادرك انها لا ترغب ان يلحظ الآخرون كثرة لقاءاتنا ولهذا لم ادعها تجلس.

:لقد وافقت المديرية العامة للتربية على ادائي امتحان (البكالوريا) وأنا بحاجة الى منهج الدراسة الثانوية

:مبارك

كان صوتها يصدح كزغرودة صادقة صافية وعميقة

:والآن لابد أن أسمع التفاصيل ، ولكن أولا هل اخترت العلمي ام ألأدبي؟

بالطبع ألأدبي , لم اصل بعد الى اختيار العلمي

:لا أعتقد ان هذا يفرق كثيرا ، المهم انك قد بدأت على الطريق الصحيح ، وهو بالضبط ما قصدته عن تكوين القناعات ، تتذكر ،كان ذلك في المطعم وكنت اعرف ان لديك أسئلة طويلة ، حسنا القناعة تتكون من الكيفية التي نربط بها الأحداث من حولنا , لكل منا طريقته , ويمكن تغيّر القناعة بتغير التشكيل ولهذا يختلف الناس بقناعاتهم لأنه ليس بالضرورة ان تكون التشكيلات متماثلة.

:على الرغم من أن الموضوع لازال معقدا , الا اني ارغب ان اسمعك تتحدثين ، هل سيكون هذا (مع رجائي الحار) طلبا ساذجا ؟

توردت وجنتاها بحمرة ساحرة في حين رفرفت عيناها بحركة متلاحقة , شعرت اني اخلق من جديد في عصف الأحداث المدوي وفي صخب صرير (جنازير)الدبابات ألأمريكية وهي تقتلع الإسفلت وتحت أزيز الرصاص الذي لا ينقطع وهدير المظاهرات المطالبة بطرد المحافظ وظلمة الليالي وطوابير السيارات أمام محطات تعبئة الوقود وازدياد صعوبة الحياة أمام أناس المدينة ، أجد انا سمير قاسم حسن، إن آفاق مستقبل أكثر اشراقا يتجسد أمامي ليس كحلم !!وإنما كحقيقة ،واني أحب أيضا

:غدا ستكون كتب المنهج عندك

:لقد وعدني أشرف بالمساعدة

:وأنا أيضا مستعدة إن احتجتني

:لأني بحاجة الى مساعدتك فلن اطلب من اشرف ذلك

إبتسمت بمودة

:أنت تتقدم بسرعة أرجو ان تكون أكثر حذرا

:والحذر يحتاج الى التعلم أيضا فهل سيكون جزءا من المنهج ؟

:الى اللقاء غدا

كانت الساعة العاشرة صباحا من يوم الثلاثاء حين تركت مبنى الحركة ، مطر خفيف يهبط متراخيا فالصيف على الأبواب وزهور (الشقيق) بدأت تذبل، ومن أسيجة البيوت كانت دوالي العنب المبللة أوراقها بقطرات المطر تبدو زاهية الخضرة والمدينة كأنها تعيش حالة ترقب فقد كان هدوء تترشح منه رائحة خطر غامض يلفها,

أبي يحب أن يتناول (القيمر) وربما كان هذا هو الطعام الوحيد الذي يعلن عن رغبته فيه وعلى وجه الخصوص عند الضحى بعدان يكون قد أنهى جولته الصباحية في المزرعة وتأكد من ان الماء قد وصل الى كل ألواح الخضروات، كنا نقسم المساحة المخصصة للخضروات الى ألواح مستطيلة يرسمها ابي بخبرته بخطوط مستقيمة تبدو غاية في الجمال بعد ان ترتفع من على وجه الأرض بالوان متفاوتة بين ألأخضر الداكن اللامع والأخضر الفاتح الزاهي تحت اشعة شمس الربيع المتكاسلة.

كان يفرش حصيرة من ا لقصب اشتراها من سائق شاحنة يتردد على الموصل لشحن (الرقي) من مزارعها الى البصرة ، كان يجلس مسترخيا تحت أشعة الشمس في الأيام الباردة متداريا من تيار الهواء الذي كان يندفع عبر دجلة من الجزيرة بجانب الجدار الغربي ، أما في ايام الصيف فقد كان يجلس الى الجدار الشرقي مستمتعا بالنسيم الخفيف الذي يمسح المزرعة ويحمل معه رائحة

المزروعات ، يستند الى جدار الغرفة ويحتسي شايه بتؤدة متجاوبا مع السكون العميق الذي يسود المكان , ولكنه الآن وبعد العمران الذي شهده (الكتف) فانه يحاول ان يتشاغل بالمذياع الصغير يصغي الى أغان كثيرا ما يشتكي انه لايفهم كلامها.

كنت في طريقي الى السوق الذي يقع أمام مبنى المحافظة ، بضعة صبيان كانوا يجرون وهم يصرخون يسقط المحافظ(لاالله إلا الله الله اكبر) ومن بعيد أسمع ضربا متناغما على الأرض فيما راح الذين كانوا يجلسون في المقاهي على الطريق يتركون مجالسهم ويقفون على الشارع أما أصحاب المحال التجارية فقد بدأوا بجمع حوائجهم التي كانوا يضعونها امام محلاتهم , قال رجل كان لايزال يلوك لقمة كبيرة في فمه (هذه المرة ستكون جدية)!يبدوا ان انبياء الموصل ألأربعون قد تخلوا عنها.

كان أمام الواجهة العريضة للمحافظة عددا من الجنود الأمريكان وبعض رجال الحماية من عشيرة المحافظ ، سيتوجه السيد المحافظ بكلمة الى أهالي الموصل ، قال ذلك رجل كان يقف الى جانبي ، ولكن ماهي المناسبة ؟ سألت الرجل فقال انه لايدري بالضبط ولكن ربما ليرد على المطالبة بتنحيته، كان صوت مجموعة تردد وراء شخص ينادي بمكبر للصوت لا اله الا الله .... الله اكبر ، ليخرج الكفار من وطننا ، لا للصليبيين .... وقفت أمام المحافظة سيارة اسعاف فكرت انها للطوارئ ، حسنا يفعلون قلت للرجل الذي الى جانبي ، انتظر ، قال الرجل ، صرخ صوت داخل السيارة بمكبر للصوت ايضا (يسقط المحافظ ... لانريد حاكما مستوردأ) .

تدفقت جموع مختلفة ولكن من الواضح ان العناصر التي كانت تقود التجمع وتؤمن الحماية له وتحرّض بشعارات معادية للمحافظ وللأمريكين كانت عناصر الحركة الاسلامية ، قال الرجل الى جانبي ، الشيخ الصميدعي ذكي وسياسي ، لم أعلق ولكني تذكرت ان الشيخ عبد الله أشار اليه عرضا عند زيارته لنا في البيت ، عاودتني ذكريات متقطعة كغمامة صيف منفرة استفردت بها ريح جافة فهي تتوزع وتذوب , كانت الهتافات تتعالى وكانت ألأصوات تزداد عنفوانا وغضبا وبدأت بوادر حركات عدوانية تسود الحشد حينما ظهر المحافظ ، كان ممتلأ تتقدمه بطن منفوخة وعريضة كأنها تتوسع الى الخارج ، يداه قصيرتان ورأسه

ألأصلع ككرة لعبة السلة فيما كانت عيناه نافرتين تعكسان رغبة محمومة في سحق كل هذا الحشد ، في الحشد لم يكن هناك اي امرأة ، كان حشدا ذكوريا فالحرب ليست من اختصاص النساء، قال الرجل الذي سألني ، هل تعرفني ؟

لا ! قلت له فرد ولكني أعرفك فقد كنت أشاهدك تلصق بيانات حركة التجمع في الشوارع وعند ألأسواق، لم أرد ، كان المحافظ قد بدأ بالحديث ،

:أيها ألأخوة لقد جئنا مع اصدقائنا ألأمريكيين لتخليص الشعب العراقي من

الديكتاتورية والفساد، وانني قد وافقت على تولي هذا المنصب بناء على مطالبة ألأخوة وألأصدقاء من أهالي هذه المدينة العظيمة للمساهمة معكم في بناء دولة الديمقراطية و الرخاء والسلم الأجتماعي ،

:كاذب

صرخ الصوت المختفي في سيارة الإسعاف

:الى جهنم ،ان الله عليم بالمفسدين

صرخ رجل وسط الزحام الذي بدأ بالتدافع نحو المحافظ

الصبية في الساحة لم يكونوا ملائكة طيبين ،كانوا ذئابا لئيمة ، وهم يخرجون السنتهم ويصدرون ،صواتا نشازا ويحركون أيديهم بطريقة بذيئة ويلوحون بقبضاتهم الممسكة بالحجارة.

صرخ المحافظ بصوت مجلجل مليئ بالغضب والاستنكار

:إن حفنة من الرعاع لن تجعلني أنهزم ، أنتم تعرفوني فأنا مقاتل عنيد وعنيد جدا

تقدم شاب بلحية كثة يرتدي ثوبا قصيرا وفي يده حجر رشق به المحافظ بسرعة لم تتركك مجالا لرجال الحماية لمنعه من الوصول الى الجبهة العريضة للمحافظ ، انبثق شلال صغير من الدم.

تراجع المحافظ مرتبكا وأطلق رجال حمايته عيارات نارية من أسلحة رشاشة فوق رؤوس المحتجين وبالمقابل أطلق بعض المحتجين الرصاص باتجاه الحرس

الأمريكي الذين ركبتهم شياطين خرساء مهتاجة فحصدوا بضعة أفراد وجرح العشرات فيما لاذ البقية بالفرار وخلت الساحة إلا من جثث القتلى وانين الجرحى الذين لم يسحبهم أحد من الساحة.

كان أبي بجلس على حصيرة القصب ويبدو انه أيقن اني لن احضر له (القيمر) فقد كان يتناول شايه ألأسود وهو يتطلع نحو الواح الخضروات.

:ماذا حصل , لقد سمعت إطلاق النار؟

:مصادمات مع المعترضين على المحافظ

:الكهرباء توقفت والبنزين إختفى من محطات الوقود فعلام يحافظ ؟

:ربما على مصادر رزقه

كان الليل فوق دجلة أشد ظلاما وصفحة السماء داكنة حتى كأن لم يعبرها قمر او تزهو بها نجوم ، والمدينة يجتاحها سكون عميق مترقب ورائحة الموت تنتشر في الشوارع ، والساحات والأزقة مختلطة بفحيح الإشاعات وتحرك أشباح تخفق ثيابهم وهم يدورون في المدينة من بيت الى بيت ومن جامع الى مسجد وفجرا ينطلق الأذان ويعقبه دعاء تحريضي بموت الصليبيين والغرباء، ماذا يحدث ؟ قال فوزي ان الفساد ألإداري المستشري يساعد على خلق أجواء معادية وان الحركات والأحزاب المؤمنة بالديمقراطية في ورطة حقيقية ، قال ابي , كنت صغيرا يوم قتل الملك ولكن أمي قالت ان الله سينتقم من العراقيين له فهو شهيد قال رياض الذي أصبح الناطق باسم الحركة : نحن مدعوون الى إجتماع هام مع قوى سياسية متعددة من بينها ضباط في الجيش السابق لترتيب وفد لمقابلة الإدارة المدنية.

جرت الأمور بسرعة ووافقت الإدارة ألأمريكية على طلب تنحية المحافظ وقال الجنرال ألأمريكي،

:لقد توجه(صاحبنا) الى مكتب المحافظ قبل يوم من وصولنا، وشكل مجلس مدينة يضم حشدا من محسوبية. كما قدم نفسه على انه صاحب القرار، وحينئذ اندلعت الأزمة ولهذا نحن نعتذر لأننا لم نعالج ألأمر على نحو مستعجل.

مرت الأحداث متلاحقة وفي مساء يوم صيفي من شهر آب

قال اشرف : مبروك ، انت ألان خريج الدراسة الثانوية

ابتسمت وداد بعفوية

قلت : أشكركم وعلى وجه الخصوص الآنسة وداد

قال اشرف : يعني نحن خارج اللعبة ! وغمز بعينه

تورد وجه وداد

قلت : سأذهب الى مديرية التربية للتأكد ولأشتري لكم علبة حلويات

قال أشرف : كيك وبالكريم لأنك لن تنجح ثانية بالثانوية

قالت وداد : غدا ، الكيك مهمتي

دخل فوزي مستفسر ا ،بارك لي ، وتساءل ولكن لماذا ، قالت وداد بحماس ، لقد نجح في امتحان البكالوريا ومهمتك ألآن ان تؤمن له مكانا في كلية القانون، ولماذا القانون؟قال اشرف ، لأنه يتمتع بقدرة على الإقناع، غمز بعينة متخابثان شعرت بخليط من الغرور والخجل ،

قال فوزي عميد الكلية زميلي ، ايام كنّا في قيادة التنظيم الطلابي في الثانوية، هيئ أوراقك واترك الباقي على أخيك

وضعنا المالي في الحركة قد تحسن ، إشترى فوزي سيارة صغيرة لتنقلاته وسيارة باص صغيرة لنقل الضيوف وو وفود الحركة الى اللقاءا ت مع الأحزاب والقوى السياسية في المدينة ،وتم شراء دراجة بخارية لاستخدامي في المهام الخاصة بالحركة ولاستعمالها في مشاويري من والى المقر ولكن بالمقابل كان جريان الزمن في المدينة خارج الضفاف وكأنه مقدمات الفيضان الذي لن يكون قطعا جزء من تأملاتنا ونحن نحلم بالمدينة الخضراء وبالناس الذين وجوههم

طيبة حد السذاجة تتسرب الى ارواحهم رياح الحب الدافئة ، تيارات شتى تعمل على توتر العلاقة بين الناس مختلقة أسباب اختلاف متنوعة ومفعّلة بشكل عدائي ، الاختلافات العرقية والدينية وهي بالطبع كثيرة في مدينتنا ، لم تعد المدينة تحلم بالحب في ليالي الصيف وانما تنشغل في السهر على البحث عن أساليب جديدة لخلق المزيد من التوتر ، في الصباح تنتشر عناصر ملثمة تقطع الجسور الخمسة وتنعزل الضفة عن الضفة ويسمع عادة صوت الرصاص وكأنه تعبير غير ملتبس عن الرغبة في التدمير في الأزقة الضيقة وفي البيوت المتلاصقة في الأحياء الشعبية وفي المزارع تتراكض أنواع جديدة من الفئران ، وعلى امتداد البرك التي تركتها الأقسام البلدية في المنخفضات وفي جوانب الشوارع كان جيل جديد من البعوض لم نعرفه من قبل ، طنينه لا يترك مجالا للاطمئنان بانه يمكن ان نجنب أطفال المدينة أمراضا لا يتوفر لها العلاج ، وعيادات الأطباء والصيدليات خالية من الأدوية، ورغم ذلك فان الشباب الملتحين أو الملثمين كانوا يطاردون الفتيات السافرات على قلتهن في المدينة بحجة انهن يمثلن سقوطا يشجعه الصليبيون , قالت وداد من هؤلاء؟ قال فوزي فتشوهم ستجدون انهم شهود الزور في هذا الزمن.

كنت أعيش عمق التناقضات وتبدو الصورة أمامي مشوشة وفي الجامعة حين بدأت انشط من اجل توسيع قاعدة الحركة اصطدمت بعدد من التنظيمات الطلابية ذات القاعدة التاريخية في الجامعة أو العناصر المسلحة بأفكار أكثر بساطة واشد لمعانا ولا تحتاج الى كبير عناء في طرحها ،, نحن ندعو الى كتاب الله، قال عبد السلام وهو يمسح ببطء على لحيته التي نبتت حديثا، ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدي الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ، المصلى في نادي الكلية كان مكان الدعاية والتحريض وكسب الأنصار أيضا وفي الحدائق المحيطة بالكلية منع الشيوعيون من التجوال بمجاميع تزيد عن اثنين ولهذا تعاونوا مع الأكراد ليؤمنوا الحماية.

سماء الموصل تتطلع بحزن عميق ودجلة مستسلم يجري بهدوء ، لون الماء رصاصيا باهتا ورائحة غريبة تعبر السهول التي بدأت تجف حشائشها ، قالت وداد أشعر اني منقبضة ! الكلية وفرت لنا مكانا إضافيا للقاء لنتحدث بكل شيء

ولكن ليس عن مشاعرنا ، قالت لم تحدثني عن نفسك، قلت ليس في حياتي الكثير ولكن تغيير النظام وانطلاق الحركات السياسية جائني بالكثير فقد تغير مجرى حياتي ، لم اقل لها اني احببتك ! قلت أبي يملك مزرعة على كتف دجلة، ولهذا فإننا اثرياء مع وقف التنفيذ ، ضحكت .... وأشعر كلما انطلقت أساريرها بأني أفوز بنقطة إضافية ، حسنا حين انهي الكلية سنبيع المزرعة وسنبدأ حياة جديدة ، من يدري قد أرشح لوظيفة كبيرة ،الحركة تتوسع ونفوذنا يزداد والوظائف توزع على أساس المشاركة ، بالطبع ليس الاشتراكية فالزمن القادم هو زمن العولمة والديمقراطية وشهود الزور لن يحولوا المجرى ، قد يؤخروا الأحداث.

قال فوزي : يجب الانتباه فقد بدأت حركة تصفيات جسدية والجماعة انتقلوا الى مرحلة جديدة بالغة الخطورة!

أبي بدا قلقا وأنا أعود مساء قال : هل سمعت ؟

ماذا ؟:

سيارة ملغومة انفجرت في السوق عند مدخل الجسر، في الموصل قد تقع:نزاعات عشائرية ولكن القتل المجاني لم نعرفه , كيف يجرؤ موصلي على قتل أناس لا يعرفهم وليس بينه وبينهم عداء مباشر ؟!!

حين تغيب الرؤية , حين يهرب القمر من السماء بسبب أصوات القرع على : الصفيح ، ياحوتة يا منحوته هدّي قمرنا العالي ،وحين تهرول الأشباح ليلا الى المسجد وليس وقت أذان فأن هذا يعني ان القتل تطهير للمجتمع ومن قتل مظلوما فجزاؤه الجنة اما المجرمون فخزي في الدنيا والآخرة

قال ابي : لم افهمك ، منذ التحقت بالكلية اصبح من الصعب علي متابعتك ، ارجو ان تكون أكثر وضوحا

نعم هذا صحيح ولكن في المرة القادمة:

نسيت ان أقول لك اني حاولت عصرا ان اذهب الى المهندس الزراعي (شهاب):انت تعرفه لشراء بعض المبيدات التي يخزنها في بيته لتعذر قيامه بفتح محله التجاري , هل تدري ماذا قال سائق الأجرة؟

:طبعا لا

:قال انه لايرغب في دخول حي الموت

قالت وداد : سأقرأ لك بضعة ابيات من ملحمة كلكامش هذا الجد الذي عاش مثلنا هنا في نينوى

"أخبرني يا صديقي عن أحوال العالم الأسفل الذي رأيت "

-: أجابه صديقه أنكيدو

لن أقص عليك أخبار العالم الأسفل يا صديقي "

"وإذا كان لا بد من إخبارك فعليك أن تجلس وتبكي

فأجابه كلكامش: " سأجلس وأبكي

لاحت في عينيها غيوم متقطعة وتابعت : هل سنجلس ونبكي على وطننا؟

كان أشرف يصر أن أذهب معه الى اجتماع بعض شيوخ العشائر في قرية (قصر ريان) للتبرك بمقام الشيخ الصالح ابي احمد عبد الله بن المثنى، ولبحث مستجدات الواقع السياسي ولحثّ الشيوخ على مساندة الحكم الجديد ، كان أشرف قد تولى رئاسة تحرير جريدة الحركة (نينوى اليوم) والتي كنت اشرف فيها على صفحة صوت الطلبة في حين تولت تماضر شؤون المرأة ووداد شؤون الشباب ، كان الاجتماع صاخبا وتشعبت المناقشات وفي النهاية لم يكن هناك من شيء محدد يمكن الركون اليه ولم يشفع لنا الشيخ الصالح , ظل الحوار يصطدم بجدران زجاجية ملتوية ،ثم ينزلق ليضيع في فضاءات بالغة العتمة

عدنا ليلا وقد حاولت ان أقتع اشرف بمبيتنا حتى فجر الغد ولكنه رفض ، كان معه تصريحا من أل'دارة ألأمريكية بالتجول ، وملاحظة الى من يعنيه ألأمر بتقديم المعونة ، في نقطة التفتيش على الطريق السريع استغرب الضابط .الأمريكي سيرنا ليلا ولكنه سمح لنا بالمرور

كانت ليلة هواؤها منعش يهب من الجبال الشرقية ويعبر الوديان التي مازالت رائحة النباتات البرية تبعث في النفس شعورا بالاسترخاء فيما يمتدّ الصمت متجاوزا مفاصل الليل لا يقطعه الا أصوات الجنادب تنادي ربما للتجمع لتبحث ماذا ستفعل بهذه الحرية الزائدة في كثافة الصمت وأمام حركات النجوم وهي تتبارز في فضاء السماء اللامتناهي ،

فكرت بفوزي الذي كان يقول ، لقد قضيت ست سنوات في إنكلترا لم أشاهد ليلا قتال النجوم ولم تحاول الشياطين ان تعرج الى السماء اذ يبدو انها تصالحت مع البشر، أما في بلاد النور والحضارة والشمس التي لا تغيب عنها، فان تراب الطريق يخاصم الحجر ، واذا لم يجد أحدنا من يخاصمه سيخاصم نفسه ، نحن نعيش ثقافة الخطيئة

رن الهاتف النقال مع اشرف ، كان رياض ، في الظلمة لم أتبين ملامح اشرف ولكني سمعت الصوت المتهدج والرنين ألآسف والصمت الذي امتد الى روحه، ارتجت السيارة وتوقف اشرف عن القيادة،

:لقد اغتالوا المحافظ الجديد

:يقول رياض ان عملية الاغتيال تمت في (تلول بيجي) وبالطبع فقد وصف الحادث بانه من فعل مسلحين مجهولين

أية رياح تهب على العراق ومن اية جزر منسية هبطت علينا نذر الشؤم وكيف تسرب كل هذا الجنون الى مدننا ، وكيف تتخلى أنبياء نينوى عن رعاياها مديرة ظهورها الى هذه الأرض التي احتفظت لهم دائما بالتبجيل والاحترام وجعلت من قبورهم مزارات للتطهر والعودة الى روح المحبة والتسامح .... كنا ونحن صغار نهزج في خصوماتنا التي لا تنتهي ((نحن اهل النبي ....والذي يقشعنا يختبي)) كان ذلك النبي(شيت) ولكنه اليوم يتركنا للأشباح التي تتأبط الموت والخراب،

نزلنا من السيارة ،لم نتبادل حديثا كان الصمت مؤلما وكأننا في مكانين منعزلين ، من بعيد كانت الجبال الشرقية كتلا سوداء مثقلة بهم السنين وشجن البعد ،وغرب الطريق كان واديا حجريا ينحدر حادا يكشف عن قسوة الأرض حين تكره البشر.

ثانية كان صوت محرك السيارة يمزق سكون هذه العزلة الموحشة ونحن نقترب من المدينة ، كانت أصوات زخات من الرصاص تنطلق بشكل مستمر، اتصل اشرف برياض ، حسنا الوضع خطير والمسلحون يقطعون الجسور وقوات ألأمن والأمريكان يحاولون ،عادة السيطرة على المنطقة وإعادة الاتصال بين الضفتين ، في الصباح تم فتح ثلاثة جسور ، لم ننم ليلتها، بقينا في السيارة خارج نقاط المواجهة على الرغم من استشعارنا بالخطر ، توجهنا الى مزرعتنا ، لم يعلق أبي، كان هو ألآخر قلقا ولم يستطع النوم ، قال اشرف عليك ان تشتري جهازي موبايل ، لك وللعم ، فكر بقلقة ، فكرت أيضا وللمرة الأولى كم هي متواضعة غرفة نومي ، سرير حديدي واحد لم يوافق أشرف على النوم عليه وبالطبع لم أوافق أنا ، نمنا على ألأرض فقد كنا متعبين.

الفصل السادس

كنت كقطار ينزلق بسرعة على خطه الحديدي، يخترق السهول الخضراء والجافة وعشرات المحطات الصغيرة ولكنه لا يتوقف عندها ، في الليل تختفي الأضواء على الطريق بسرعة وأشم روائح المشويات تخترق النوافذ ولكن يتعذر رؤية الباعة إلا كأشباح داكنة تتحرك على نحو ميكانيكي ، في النهارات المشمسة تظل صور أسراب الطيور البعيدة ثابتة في السماء وهي تغذ السير نحو الجنوب، لكني لم أكن استطيع التفكير بتركيز يسمح لي بالعودة الى التفاصيل الدقيقة لمسار حياتي ،ربما يعود ذلك الى (رتم) حركة القطار الثابت، التي تبعث فيّ خدرا يشمل جسدي كله ونعاسا يمرجحني بين اليقظة والمنام ، أشعر أحيانا اني طائر يسبح فوق الغيوم القليلة الموزعة في رقعة واسعة من سماء شفافة الزرقة ، كان حلما يأخذني برفق الى عوالم مغلفة بالسحر.

توقفت فجأة وانا أصحو على رنين الكلمات المجلجل ، وحيدا كنت في محطة نائية انمحى فيها الزمن وأصبحت الأحداث إيقاعا يصم الآذان ، عجلات القطار العملاقة لم تعد تطرق السكة بضرباتها الرتيبة ،توقفت ولكني لم أهبط الى ألأرض بعد ، كنت أتطلع بشيء من المعرفة على اني ربما لا يمكنني ان أكون في المحطة التي يطلب الشيخ عبد الله ان أتوجه اليها ، منذ سنوات التزمت بالصلاة ولو بشكل متقطع وحتى حين كان والدي ينشغل بالمزرعة كنت أحيانا أصلي وحدي وحينما بدأت اقرأ على نحو أكثر عمقا كان الدين بالنسبة لي حاجة روحية تدفعني أحاسيسي اليها دون ان أستمع الى خطبة الشيخ عبد الله ، ماذا يعني ان أكون معهم؟ الله الذي أعرفه مع الجميع ، والقبلة واحدة كانت وستبقى بعد الشيخ عبد الله وماذا يعني ب (معنا) كنت دائما اراه وحيدا مهموما، كان يكرر ، لن انسى معروفك ، وأرد علية دائما بذات العبارة ، يسرني ان اقدم لك خدمة عمي الشيخ.

رنّ جهاز الهاتف ثلاث مرات ولكني لم أرد كما اني لم أغلقه ، كنت أشعر بإحباط شديد ، توقفت بدراجتي النارية عند مطعم أبو اشرف ولكن العمال كانوا يقومون بالتنظيف فالمطعم عادة لا يظل فاتحا ساعات الظهر ، جلست على (تخت) جانبي في مقهى الوردة البيضاء وحين قال النادل , ماذا تشرب ، كان صوته يأتيني من بعيد ، من فضاء مسكون بالصمت لا يرد صدى ، مرت ثلاث عربات أمريكية بسرعة فقال رجل كان يقرأ جريدة ويضع على عينيه نظارة طبية بإطار أسود

سميك ، اللعنة , ثم تدارى وراء الجريدة التي تحمل الصفحة المقابلة لي ، الجثث مجهولة الهوية في نهر دجلة ... تتزايد ! الشارع الداخلي الضيق مزدحم بالمارة وبضجيج الباعة والأغاني المنبعثة من المقاهي والمحال التجارية ومطاعم متنوعة يشكل الذباب على أبوابها تجمعات تدور على نحو مستمر فوق النفايات المكدسة ، عدت الى دراجتي ، عند الكتف كانت الشمس حادة تقف في السماء بعناد وتشمل الفضاء الفسيح والنهر والحقول والمزارع في الضفة الشرقية بكمية هائلة من الضوء وكأن حريقا يمتد بكل مكان ، كيف سأتصرف ؟ وماذا سأقول لوداد ولأبي ولرفاقي في الحركة ؟ بدأ الأزيز الذي خلفّه صرير الحروف في فم الشيخ عبد الله في أذني يهدأ ، ركنت دراجتي الى حائط منزلنا الجديد ولكني لم أدخل كنت أجد في نفسي حاجة الى السير بخطوات بطيئة عند حافة النهر فذلك قد يتيح لي فرصة اكبر للتفكير ويمكنني من السيطرة على بواعث التشوش التي تتدافع في مخيلتي بحيث لا أستطيع ترتيب افكاري ، فوزي في بغداد ، قال والده ان الدورة البرلمانية قد بدأت وقد يبقى في المنطقة الخضراء حتى الأسبوع القادم ، لم اسأله كيف أمّن السفر والطريق مغامرة في معظم الأحيان تقود الى الموت ! ، وداد مشغولة بالتفكير بحفلة الخطوبة ، أمس كنت وابي في زيارتهم ، قالت ان أباها يفضل ان نزورهم الأربعاء بعد الساعة السابعة لأنه سيذهب الخميس الى مدينة الشرقاط لزيارة أمه ، قلت لأبي ما أرجوه ان لا تدخن لأن رائحة السكائر التي تدخنها تضايقني وبالتأكيد ستضايق الآخرين، لم يحتج ، قال , يصير خيرا ، ابي يدخن سكائر سومر ، كان ذلك قبل سقوط النظام ، وهو ألآن لا يستقر على نوع محدد ، يقول انه أسير السوق الجديدة.

قال أبو وداد ، من جانبي لا مانع ولكن من المهم ان توافق هي ، أمها كانت تتفحصني كأني خروف العيد ، قال ألأب ، لقد سألت عنكم وتأكد لدي إن سمعتكم نظيفة كما ان المعلومات تؤكد انك شاب عصامي وأمامك مستقبل ولكن هل فكرت بما ستفعلة ؟ توسعت حدقتا عين ألأم وكأنها تريد ان تحتوي كامل المعرفة عن مسار المستقبل ! قلت لدي وابي أفكار عديدة فقد نبيع جزءا من المزرعة ونبدأ بمشاريع لتربية الدواجن والخراف ، قال الأب وهو يتوجه الى وداد ، ما ذا تقول العروسة؟! أطلقت ألأم زغرودة قصيرة وقالت وداد ، ما تقوله أنت ! قال ألاب على بركة الله ، قرأنا الفاتحة واتفقنا على أن تكون حفلة الخطوبة في بيتهم الخميس التالي وان تقتصر على معارفهم وصديقاتها وزملائنا في الحركة .

الشمس ما تزال حادة وتنبعث من النهر رطوبة تحملها ريح خفيفة تعبر مياه النهر البيضاء ، وعلى الضفة ألأخرى تقدمت ثلاثة غربان الى الماء ، كانت تمشي بهدوء وبشيء من الخيلاء ولم تتلفت محاذرة وهي تغمس مناقيرها في الماء ،في الجو تحت سماء باهتة الزرقة كان صقر صغير الحجم من النوع المعروف في جزيرة الموصل وسهل نينوى يحلق دائرا في مساحة كبيرة فاردا جناحيه فيما عيناه ترقبان البساتين الظليلة في الضفة الأخرى دون ان يعير الغربان أي اهتمام ، الحياة أضيق من دائرة الصقر في السماء الخالية من أي سحر ، نزعت حذائي وخضت في الماء ، طارت الغربان واختفى الصقر ، في الماء الذي كنت اسبح فيه تذكرت حينما كنا نتراهن،من يعبر النهر مكورا ملابسه فوق رأسه متجنبا ان ينالها البلل ..... كنت دائما أفوز في تلك الرهانات وأعود بعلبة حلويات من شارع النجفي ، اليوم اسبح بكامل ملابسي وأنا أرفع رأسي الى السماء الباهتة تحت أشعة الظهيرة و أشعر بصفاء وبنشوة غامرة تسسلل الى قلبي وتمتد الى كياني كله و اني أكثر قدرة على معاودة التفكير.

ارتميت على الشاطئ ألآخر، بضعة اطلاقات متفرقة أفزعت الطيور المختبئة في المزارع ففرت دونما اتجاه محدد ، كانت تطير بفوضى وهي مرعوبة ، بدأ اطلاق النار يتزايد ، زخات متتاية تشير الى مواجهة حادة عند الجسر الأوسط.

كان أبي على حافة الكتف يلوح لي ثم بدأ ينادي بصوت فيه رنة جزع، القتال ازداد شراسة فقد بدأت أسلحة ثقيلة تدخل المعركة وبين آونة وأخري يدوي صوت مدفع دبابة وهو يرد على قذيفة هاون تنفلق في الشوارع الفارغة فيما حلقت طائرتا (هيلوكوبتر).

قال ابي : ماذا حصل ؟

:كالعادة الأشباح تتقدم نحو المدينة

:ليس عن هذا سؤالي ، أنت تسبح بملابسك ؟

حكيت له مقابلتي مع الشيخ عبد الله ، صمت بقلق ، كنت أرى كمية القهر التي تأسر وجهه .

:عليك ان تغادر الموصل ، يمكن ان تذهب الى قرية (يارمجة) لدي صديق عرض ان اشاركه في مزرعته ولكني لم أشجعه ، يمكن ان نعرض عليه المشاركة شريطة ان تتولى دراسة المشروع وبهذا تبتعد عن أنظارهم.

:ولكن قبل ذلك علي ان أجري بضعة اتصالات بزملائي في الحركة وبخطيبتي

:بالمناسبة ، لقد اتصلت وداد على هاتفي وكانت قلقة

:حاولت الأتصال بي ولكني لم أرد فقد كنت في حالة سيئة

كانت الإذاعة المحلية تقدم عرضا متواصلا للقتال عند الجسر الثالث ولا تنفك التأكيد على ان المعركة على وشك ان تنتهي بتطهير المنطقة من الإرهابيين، تواصل اطلاق النار الكثيف كان يأخذ ألأخبار نحو اتجاه آخر ، قلت لأبي مازال الوقت يسمح بالخروج وانا أشعر برغبة في الصلاة بمسجد النبي شيت ، قال ابي، لا أعتقد ان هذا ملائم في ظل الوضع الذي تحدثت عنه فالمسجد يخضع لهم

حين اتصلت وداد كان صوتها مرتجفا قالت ، أين انت ؟ إخبرتها بايجاز عما حدث ، قالت غدا يجب ان نلتقي في مقر الحركة ،حين اقترحت مبنى الجريدة رفضت بشدة ، مقر الحركة تتوفر له حماية افضل ، قال ابي سأكون برفقتك لن أدعك تذهب وحيدا وسيكون لدينا سلاح ، قلت ولكن الشيخ عبد الله أمهلني يومين ، قال لا أمان لهم كل شيء مباح ولديهم فتاوى جاهزة ، تذكرت أيام شعار كل شيء من أجل المعركة.

بدأت ظلال المساء تنتشر بصمت لا تقطعه إلا أصوات متباعدة لرصاصات مجنونة تخترق حاجز الصمت ثم تموت في العتمة ، لم أجد لدي رغبة يتناول الطعام , كنت في غرفتي ممدا على سريري الحديدي تجوب عيناي في الجدران العارية ورفوف الكتب التي بدأت تنتظم بتزايد مضطرد منذ دخول الجامعة , كانت في ألأدب والسياسة والتاريخ ، كنت في السوق حين استوقفني رجل في الستين ،قال لدي مكتبة تضم المؤلفات الكاملة لبعض الكتّاب والشعراء فهل لديك الرغبة بشرائها ؟! لقد استنتجت من وقوفك عند باعة الكتب انك من هواة القراءة ، حسنا

انا محتاج الى ثمنها ، ابني اصبح بلا عمل وزوجتي لاتستطيع الذهاب الى مدرستها وأنا عاطل.

كانت المكتبة تضم المؤلفات الكاملة لدستوفسكي ومسرحيات شكسبير وتاريخ بغداد ومجموعة من كتب النقد ألأدبي وديوان الجواهري وأحمد شوقي وكل مؤلفات نجيب محفوظ ، لم أساومه كثيرا وفهمت لماذا لم يكن يرغب بعرضها في السوق.

فكرت انه من الأفضل التخلص من بعضها فقد تكون (أدلة جنائية) عندما يقرر صبيان الشيخ اقتيادي للتحقيق ، ربما أحضى بمحاكمة احتاج معها الى ترتيب أموري على نحو يخفف من الشبهات رغم كل ألأخبار التي تصل الجريدة عن الرؤوس المقطوعة والجثث المجهولة وعمليات الخطف المستمرة.

الليل يمر بطيئا تكمن في ثناياه ظنون تتمدد بكل الاتجاهات ولكنها جميعا لا تشير الى أي مجال للفرح فالنور يظل مستحيلا في انتشار عنفوان الدم الذي لا يسمح للضوء بالتسرب ،كانت وداد على الهاتف ، قالت انها لا تستطيع النوم وهي تأخذ التهديد على محمل الجدية الخطرة وان علي ان أتأكد من غلق الأبواب وأن أكون مستعدا للطوارئ، لم تتحدث عن الحب ولم تهمس برومانسية كما كنت أسمعها ونحن نخطط للخطوبة ، ندخل مرحلة جادة ، عصر وجدنا فيه فجأة وهو يدخل خيمة الموت والضياع ، أحيانا يكون الجنون إيجابيا ولكنه اليوم سلبيا حد الدخول الى جهنم.

كانت وداد مشرقة باستمرار حتى كأنها قطعة كرستال تموج بألوان قوس قزح في صباح ناد رغم انها تمتلك نظرات مموهة تبدو محايدة ولا تكشف عما يجول في نفسها ، لكنها لا تخفي ومضات الذكاء في ثنايا تلك النظرات ، لقد قادتني بهدوء وبشكل غير مباشر الى نمط معين من القراءات ، قالت انها تميل الى الدراسات العقلية الجادة وتصر على ان ما لا يقبله العقل يرفضه الشرع ، لم افهم مدلول الجملة فأعطتني كتابا عن المعتزلة ، بدأت بعد ذلك تعطي شرح المفاهيم والمصطلحات جزءا كبيرا من لقاءاتنا وكانت كثيرا ما تصحح مقالاتي ولكن على نحو لم اكن أشعر معه بالحرج ، عبر هذا النمط من العلاقة كنا نشعر بالسعادة،

أحيانا تبعث كلماتها القليلة الهامسة دفئا غريبا ربما أشد من الدفيء الذي تبعثه مدفأتنا النفطية في ليالي الشتاء الباردة.

قلت لأبي باني سأذهب لشراء البنزين للدراجة بما يكفي سفرتنا للقرية ،ومن السوق اشتريت بعض الحاجيات كهدايا ، عدت في العاشرة صباحا الى البيت بعد ان عرجت على مبنى الحركة ، كانت وداد بادية التأثر ،ربما لم تحظى بليلة هادئة فقد لاحظت ان نظراتها كانت غير مستقرة وبدا شيء من العصبية في لهجتها التي كانت هادئة ورصينة تعبر عن ثقة متناهية، كما لاحظت ان أصابع كفيها الدقيقة والتي كنت أقول لها انها تليق بعازفة بيانو فهي طويلة ورشيقة ، كانت اصابعها مرتعشة.

حتى كلامها بدا لي غريبا بعض الشيء اذ كان يدور في متاهات ولايركزعلى معنى محدد ، طلبت لها فنجانا من القهوة ورجوتها ان تهدأ الى أن أدرس الموقف مع اشرف ورياض لم تستطع تماضر الحضور فقد كانت تتعرض لمضايقات وتحرشات محرجة ، أما حمدي فقد كان في إربيل لأمور تتعلق باشكال التعاون مع الحزب الديمقراطي الكردستاني ، كان اشرف يعرض حماية شخصية لي ومن رأيه ان علينا ألا نتراجع ، قال .... من الواضح اننا أمام مفترق طرق كلا اتجاهيه بالغ الخطورة ، ان ندخل اسلامهم الجديد أو نذهب بتذكرة مرور الى جهنم الآخرة عبر جحيم الدنيا ! ، قال رياض شر البلية ما يضحك ، قال اشرف نعم لأنك ان لم ترضخ لترقص في حفل جنونهم الدموي فستقتل ولكن بحفلة مجون وحشية.

خرجت وداد معي،حتى السوق لم تتكلم ، كان صمتها يعذبني ولكني كنت لآ أجد ان الكلمات مناسبة للتعبير ، أخيرا قالت ، لابد أن نفترق أرجو من الله ان يكتب لك السلامة وثق اننا سنلتقي ولن تكون رغباتنا باردة وسنحظى قطعا بليلة عذبة ، بوقت فرح ، وبألق الصباح .. نحن متافألون على الرغم من كفافيس وقصيدته

(الرغبات) ، كانت تحاول التخفيف عني رغم عمق الجرح الذي تعاني منه

عرض حمدي ان يرافقنا الى قرية(يارمجة) ولكني شكرته ،وداد قالت ستكون أياما حزينة وسأظل أستعيد ذكريات عزيزة على قلبي ولكن هذه اللحظة، لحظة فراقنا ، فانها ستكون ثقيلة ومترعة بالأم الى الحد الذي أشعر فيه منذ الآن أني

مطوقة بالهم الذي يمس شغاف قلبي وانا غير متأكدة ما اذا كنت سأتحمل هذا الفراق.

كان أبي قلقا وأمامه بقايا بضع سكائر لم يدخن إلا جزءا يسيرا منها ، قال بأن علينا أن نسرع لأن عليه ان يعود بعد ترتيب ألأمور مع شريكه المفترض

على الباب كان طرق شديد ومستعجل ، كان صبيا في الخامسة عشر من عمره في عينيه نظرات غاضبة وعلى جبينه تقطيبة صارمة.

:هذه رسالة من الشيخ عبد الله

لم ينتظر ، غادر مسرعا ولكن بحركات متشنجة ولم يلتفت نحوي ، كانت الرسالة من سطر واحد.

لقد انقضى يوم من المهلة .. لاتفكر بالهرب فعيوننا ورائك ولن تفلت من عقوبتك.

تقلص وجه أبي وانا أقرأ له الرسالة وشعرت انا بألاحباط

قلت لأبي: انه قدري الذي علي ان أواجهه

قال : أي زمن هذا ، يصبح القتل فيه منهجا والعقاب انتقاما

صمت لحظة وفي عينيه نظرة أسف عميقة

:لابد من وجود وسيلة ، انهم يجندون الصغار كشبكة تجسس كما إنهم يسيطرون على الطرق الخارجية ولديهم فوق كل هذا بعض العيون في جهاز الشرطة المحلي

في مقر الحركة عدنا ثانية للتداول ، لقد تضاعفت المشكلة، فأبي أيضا مستهدف ولا يمكن ان أتركه لجنون ألأشباح وروح الشر التي تتملك الشيخ عبد الله والتي تصوّر له انه سيف الله الذي يجتث الكفر ويزرع ألإيمان.

قال حمدي الذي عاد قبل قليل من إربيل : إن ألإيمان سلاح، أما التعصب فهو أخطر ألأسلحة ، والجماعة يحملون إيمانا منحرفا وتعصبا مدمرا والتراجع أمامهم لن يترك لنا حتى قبورا تذّكر أحفادنا بنا لأنا سنكون اما جثة يأكلها السمك أو جثة بدون رأس لا يعرفها احد

قال رياض : لقد كلمت فوزي ونصح بأن نوفر حماية لك ولوالدك ، سيكون معك اثنين وفي المزرعة اثنين أيضا

قالت وداد : والسلاح ؟

قال رياض : يمكن الحصول على ترخيصه من المحافظة

قال الشيخ هادي : انهم يقصدون الحركة وهدفهم تحطيمها من الداخل أو تحريكها بما يخدم مصالحهم ، و واحدة من أساليبهم اختراق الأجهزة والمنظمات لتشكيل طوق نجاة متين

إبتسم أبي بمرارة وانا اخبره بما جرى ألاتفاق عليه ، قال ...لماذا لايبحثون اذا عن توفير الكهرباء فالظلام أحد أسلحة الأشباح لأنه يعطيها الحرية بالتحرك ؟

كانت الرسالة الثانية اكثر اقتضابا (لقد أعذر من أنذر)

في المدينة الأوضاع تزداد سوء فقد انخفضت ساعات التيار الكهربائي وأصبح التزود بالوقود الخاص بالسيارات شبه متعذر مما أدى الى توقف معظم سيارات الأجرة والشاحنات عن العمل وانعكس ذلك سلبا على الوضع العام فقد ارتفعت نسبة البطالة وتوقف إمداد السوق بمحاصيل الحقول من الأرياف البعيدة نسبيا وأصبح التنقل مكلفا كما ان النفايات كانت تشكل مخاطر صحية حقيقية بعد ان اضحت الشوارع وألأزقة مكبا لها دون معالجة جدية من قبل الجهات المسؤولة ، قمنا بمناقشة هذه الأوضاع في مقر الحركة وقدمت جملة مقترحات لتنشيط تعاون السكان مع ألأجهزة الحكومية، قال الشيخ هادي ان أهالي المدينة كانوا دائما يرغبون بمساعدة بعضهم البعض وأمام الطوارئ الخارجية كانوا يتناسون خلافاتهم ولا اعتقد انهم يتخلفون ألآن، لكن ذلك يستلزم جهدا ورغبة صادقة من الداعين لهذا ، ومن تجربتي أعتقد أيضا انهم سيواجهون الإرهاب وسيقفون معنا ، انهم يحملون نخوة خاصة لا يمكن ان تخطئها العين المدربة على العمل الجماهيري فهي كخيط شفاف لايرى ، المسألة بالكامل تتعلق بكيف نعمل؟

بعد مناقشات طويلة وجادة كلفت بإعداد دراسة حول الموضوع

كانت تهديدات الشيخ عبد الله تعيش معي ولكني قررت ان أتعامل معها بتحد لا سيّما إن المحافظ فرض حضرا على التجول لمدة ثلاثة أيام ، قررت ان أعيش حياتي ، صباحا أتصل بوداد وفي المساء تتصل هي ، أية سعادة تحملها هذه الأجهزة الصغيرة ،ربما من حسنات سقوط النظام ان نحصل على بعض منتجات التكنولوجيا الحديثة وان نعبر عما في نفوسنا بحرية أكبر قد لاتسمح بها اللقاءات المباشرة

قال أبي : لماذا لاتفكر بترك الحركة والجريدة ؟

:ليس من السهل عليّ فعل ذلك فهما حياتي الجديدة وقد لا أستطيع العيش بدونهما

:ولكنهما لم يجلبا لك إلا المشاكل والخطر

:من لايواجه المخاطر اليوم ، السيارات المفخخة وألأحزمة الناسفة لا تستثني احدا

:لقد عودت نفسي ألا اتدخل في حياتك وأعتقد ان لديك القدره على اتخاذ القرارات الصائبة

أن أعتزل ! ولكن ماذا سأفعل؟ لقد انطلقت في كياني روح جديدة منذ ان بدأت أغيّر مجريات حياتي فأعاود الدراسة التي كنت وإياها على طرفي نقيض، وألآن انا لا أستطيع ان أكون محايدا وأطفئ هذه الشمعة الصغيرة التي تضيئ دواخل روحي، بعد المعرفة شعرت بحرية تملئني ثقة وبشعور كألق الصباح نقيا يشع في نفسي سرورا

اليوم هو الجمعة ، صرفت الحراس الشخصيين الذين وفرتهم الحركة وقررت ان اذهب للصلاة في النبي يونس ، كان البناء بأشكاله الهندسية المثيرة يبعث في نفسي شعورا بالراحة ، بدأ غبار يملأ الجو ، لم تكن هناك ريح تحمله ولكنه كان ينتشر كما لو ان دعوات ساحر تدفعه بكل الاتجاهات، يملأ الأنف ويجعل من الرؤية عملية صعبة ،انقبض قلبي وفكرت ان مثل هذا اليوم يصلح لكل المفاجئات ، قال أبي ، الله الساتر ، كان يحاول ان يتطلع الى السماء، التي بدا لونها ورديا قاتما ،

كان يداري عينيه من حبات التراب المخلوطة برمل ناعم حاد الملمس فيما تطبق عتمة متوعدة على امتداد الشوارع والطرقات وتغطي دجلة الذي يصر على الانسياب وكأنه يحمل جراحاته وهمومه بصمت حزين ،

المدينة التي يطبق عليها الظلام مبكرا بسبب انقطاع الكهرباء وتسيطر على مداخلها ليلا فرق الأشباح وعصابات اللصوص والمهربين بدت وكأنها تخضع للعنة حمقاء بعد ان تخلى عنها ألأنبياء ألأربعون كلهم الذين كانوا يحرسون بواباتها ، كان احمرارا فاجعا يلوّن مدينتنا الخضراء وكلما ازداد زحف الغبار الصامت كأنه ظلال الموت أو رائحة الخراب التي تسبق ألاعصار ، خيّمت وحشة شرسة تتغلغل في البيوت وألأزقة ، وحشة مقبضة كنذر السماء إذا زلزلت ألأرض زلزالها.

قال ابي: أللهم أجرنا

أنقعت منديلي بالماء ووضعته على أنفي وخرجت ، كان الطريق خاليا ولكني بدأت أسمع زخات من الرصاص ، كانت في دائرة ضيقة ثم أخذت تتوسع وفجأة انفجر قتال شرس وسط المدينة وشاهدت الدبابات ألأمريكية تتقدم باتجاه الجسور الخمسة التي تربط الضفتين فيما كانت سيارات الشرطة تتجه وسط المدينة برتل يطلق أصواتا لانذار متلاحق ، توقفت عند مدخل شارع الدواسة ، كان محل لبيع ألأثاث مغلقا ولكني رأيت ضوء يتحرك في الداخل ، مالك المحل أحد المتعاونين معنا ولهذا نقرت على الزجاج بقوة.

قال رجل في الداخل : من أنت؟

كان في صوته نبرة استغراب ان يؤمهم زبون بمثل هذه الساعة وربما فكر ان لصا يحاول ان يستغل الموقف ،

هل ألأخ أبو رعد موجود ؟:

:ولكن من أنت؟

:سمير من جريدة نينوى

:سمير ، ما الذي جاء بك في مثل هذه الساعة

فتح الباب بتؤدة ووجه الرجل ضوء مصباحه اليدوي الى وجهي

:آسف ، تفضل بسرعة فالغبار يغزونا

قلت له ،لا أدري لم خرجت ، أحسست اني أختنق فأنا معزول عن العالم وجهاز الهاتف لايعمل وهذا القتال اللعين يبعث على الجنون ، قال ، لقد استغلوا هذه العاصفة الصامتة وسيطروا على الجسور وانتقلت مجموعة منهم الى وسط المدينة لاحتلال مبنى المحافظة والدوائر الرسمية تمهيدا لإعلان دولة ألإسلام الجديدة ! ،انهم يتوالدون من جحور أفاع سامة ،ربما بالانشطار

:ولكن ما الذي أتى بك أنت الى المحل ؟

:في الخزينة بعض النقود تركتها منذ أمس وفكرت ان أسحبها فقد يحطمون المحال والمكاتب وينهبوها ، أولادي أولى بها

توقفت سيارة للشرطة عند الباب وبدأت بارسال إشارات ضوئية الى الداخل

قال أبو رعد : انهم يخاطبونا

خرج اليهم وبعد أن عاد قال بان ألأمريكيين إستعادوا الجسور وانه تم قتل معظم المهاجمين في وسط المدينة ، تصوّر ان الشرطة لم تتعرف على أي منهم ، فعلا انها ألأشباح التي تهاجمنا.

عرض علي أن يرافقني للبيت ولكني شكرته وخرجت تملأ شفتي ذرات التراب والرمل في المنعطف المؤدي الى الجسر، عند الساحة الدائرية كانت نقطة سيطرة ، مجموعة من الملثمين يقطعون الطريق ، حسنا ألان التقي بألأشباح وجها لوجه، لن يتخفوا وراء هيئاتهم المزورة وقطعا سيعلنون عن اسماء آبائهم الحقيقين ، كانت بطاقة التعريف الوحيدة في جيبي هي هوية نقابة الصحفيين ، صرخ الملثم الذي غطاه الغبار والرمل.

:صيد ربما ثمين

على الرغم من اني أيقنت إنهم سيأسروني إلا اني لم أشعر بالخوف فقد كان الفضول يتملكني والغبار يخنقني ولامبالاة غبية تشل ارادتي ،

:إصعد

كانت سيارة بيضاء (لاند كروز) وحين جلست عصبوا عيني ، لم يكن ذلك ضروريا فهم ملثمون والغبار يغطيهم ، ربما من باب الحذر أو لأنهم حريصون على إخفاء صورهم الشيطانية

قال الرجل الذي ينزف : أشعر إن دمي سينفذ، أريد قليلا من الماء

لم يجبه أحد ولكن رجلا من المجموعة صرخ بصوت آمر

:كفى ، لنرسل هؤلاء

كانت لكنته عربية أعني لم يكن عراقيا، شعرت بخوف مبهم ، لن أكابر ، كان الخوف يسري ببطء في شراييني ويصعد الى رأسي سيلا من الدفق العنيف ، في أذني بدأ أزيز يملأ مسمعي ثم تحول الى طنين حاد ، قرأت مرة ان اخطر مرحلة في عمليات التحقيق هي مرحلة الانتظار ولهذا فان محققي ألأجهزة ألأمنية يلجأون الى ترك المتهم دون سؤال فترة طويلة كي يبدأ بألانهيار ، كانت السيارة تسير بسرعة والشباك المفتوح من جهتي يسمح لكميات من الغبار الرملي بضرب وجوهنا بقسوة وآسرينا ملثمون يشد الصمت على وجوههم ،انه مجدهم الذي يلوحون به للعالم من خارج الزمن ، ربما من العالم السفلي الذي أبكى كلكامش ، هل نحن مقبلون على مرحلة انهيار التاريخ ؟

توقفت السيارة وأمرنا بالنزول ، عاوننا شخص ما وهو يشتمنا ببذاءة ، اجتزنا ثلاث درجات لندخل باحة واسعة ، كان الصوت الذي يأمرنا ان نخفض رؤوسنا يتردد في الزوايا ويرجع صدى مكتوما ، نزلنا بعد ذلك درجا خمّنت انه يقودنا الى سرداب أسفل البناء.

:ليجلس كل في مكانه ولاتتبادلوا أية أحاديث

كان الصوت هذه المرة لرجل من الموصل، تحسست الحائط لأركن اليه وأجلس ، شعرت اني أسقط في فراغ مظلم ، في فمي مرارة وبدأت اشم رائحة مقرفة

قال شخص ما الى يميني : اريد أن اذهب الى المرحاض ، بطني يؤلمني ولن أستطيع السيطرة على نفسي ، منذ الفجر وانا مرمي كالكلب ، أنا عامل مخبز ولم أتدخل يوما بالسياسة ، لآ أحد من أهلي في الشرطة أو في الحرس الوطني وفي بيتنا لآاحد يعرف أللغة (ألأمريكية) ياناس لماذا هذا العذاب

لم يجبه أحد

قلت له : تماسك فلا أحد يسمعك

:من أنت؟

:أسير

عاد الصمت ثانية ، قطعه صوت خطوات نازلة

.:انت ، عبد المنعم شيت

:نعم

كان صوت الرجل الذي ينزف ، تذكرت ان ألأسم ليس غريبا , في ذهني انبثقت حزمة نور , إنه المسؤول القانوني في المحافظة ، لن يعود ، لم يكن هذا استنتاجا وانما نتيجة منطقية لسلوكهم، لأيمانهم المطلق ان القتل هو الطريق لإعادة صياغة التاريخ

لم نأكل ولم يعد عبد المنعم ولم يسمح للرجل الذي تشد عليه بطنه ان يذهب الى المرحاض ،بدأت أفقد ألاحساس بالزمن ، حين تتكاثف العتمة أعرف ان الليل قد بدأ وحين يبدأ الضوء يخترق العصابة حول العينين أعرف انه النهار، كيف هي وداد ألآن ؟ وكيف هو أبي؟ وبماذا يفكر زملائي في الحركة .

عاد الصوت ثانية يرج السرداب

:سمير قاسم

:نعم

:تعال

حين حاولت النهوض شعرت كم انا ضعيف ، اتكأت الى الحائط ولكني عجزت عن الوقوف ، أسندني ألرجل وقادني صعودا الى ألأعلى .

توقفنا ، أحسست اننا ألآن لسنا وحدنا

:لقد حذرناك بالحسنى ومنحت فرصة لم يحظى بها سواك

كان صوت الشيخ عبد الله ولكنه كان جافا ينضح صرامة وعدائية

:لا أنكر انكم حاولتم مساعدتي

:لماذا إذا اختفيت ؟

وهل تعتقد إننا سنكون بانتظارك الى :لم أختف ولكني كنت ماأزال أدرس العرض: ما لانهاية ، انت تعرف كم هو مهم الوقت لنا ، نحن في معركة شرسة والعدو يملك كل شيء ونحن لا نملك الا إيماننا

تذكرت مقالة زميلنا في الجريدة ،توظيف الإيمان أشد ألأسلحة فتكا ، صمت الشيخ عبد الله ،قلت هل أستطيع ان أتناول قليلا من الماء؟ أمر لي بذلك وطلب ان تفتح العصابة ، كانوا أربعة أشخاص ، الشيخ عبد الله والرجل الذي سبق لي رؤيته ، ذي اللحية المثلثة واثنين بملابس عسكرية أحدهما مايزال تحت العشرين والآخر ربما تجاوز الثلاثين قليلا ، كانت سحناتهم صارمة ، في نظراتهم هستريا مجنونه ربما سببها ادمانهم القتل والدم المستباح الذي تسكبه الضحايا

:اننا نجاهد من أجل اعلاء كلمة الله

:ومن هو ضد هذا ؟

:انت ورفاقك أبناء الشيطان ، كيف يمكنك ان تكون مع الله وانت و رفاقك أوليائكم اليهود والنصارى؟

:قال الله تعالى (وجادلهم بالّتي هي أحسن)

بدأ ذو اللحية المثلثة، بحديث ايضاحي يحمل إيحاء بلاغيا مشوشا ليس من السهل متابعته ، ثم تحول الى لهجة خشنة يطغي عليها الغضب وتوحي بكمية من الحقد والكراهية تثير الرعب ، كان خشنا ومتعاليا حد التفكير بأنه على استعداد لقطع رقبتي بسكين المطبخ وهو يتحدث عن المعنى ألأعجازي بقوله تعالى (والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه)

كنت اشعر بإعياء كامل ، رجوتهم أن يسمحوا لي بالجلوس على ألأرض لأني قد أقع باية لحظة

قال الشيخ عبد الله : لم يبق الكثير ولكن يمكنك الجلوس لحين اتخاذ القرار النهائي بشأنك

جلست وفي عيني سحابة بدأت تنتشر لتسد أفق الرؤيا ولتشوش فكري ، إذا لن تكون هناك مواسم للفرح وهذه هي نقطة القطيعة مع الحياة ، تجمدت أحاسيسي بدرجة عالية من البرودة وتحولت الرؤى أمامي الى كتلة صخرية صماء، ماذا يجري لماذا نموت على هذا النحو البائس ، لم أكن أسعى لأكون بطلا ، كنت أجهد نفسي لأكون انسانا ولهذا درست بجد وقرأت بجد عرفت ماذا يعني ان يكون الأنسان حرا، وماذا يعني ان يفهم كيف يتذوق الجمال والنقاء والحب ، ولكنهم يعبرون الى مدينتنا على الجثث والدم ويعطبون فينا روح ألإنسان

قال الشيخ عبد الله : بالنظر لإمعانك في الغي وإصرارك على الضلال فقد تقرر إعدامك قصاصا وفاقا بالسيف.

الطريق مسدود وعقلي يتفكك وليس فيه إلا خواء ، صحراء تجتاحها ريح صرصر ويقتلها الضمأ ، وتختفي حتى أفاعيها السامة في أعماق جحورها ، جفت شفتي ويبس حلقي وانبعثت برودة صقيع قطبي في أطرافي

جاهدت لأقول : الحمد لله من قبل ومن بعد ،هل أستطيع الصلاة ؟

نظربعضهم الى بعض وقال الشيخ عبد الله : ركعتين

حين وقفت تراخت ساقاي فقررت ان أصلي وانا جالس ، قرأت الفاتحة ودوى في ماتبقى من وعيي صوت انفجار هائل ، رفعني الانفجار وألقى بجسدي المتعب في زاوية الغرفة بعنف وشعرت ان شيئا حارا قد انغرس في ظهري وان سائلا ساخنا بدأ يبلل فخذي ، غبت عن الوعي

يصبح الزمن أحيانا خارج الحسابات الرقمية فهو ليس الساعات أو ألأيام انه فترة ما ، داخل هذيان مرضي ليس من السهل قياسه ، قد يكون حالة تجديد أوحالة اكتشاف لإبتهالات غيبية تأخذك بعيدا ، هل يمكن سؤال المأخوذ بحالة عشق ، كم الساعة ألآن؟ يا إلهي ماذا يجري تحت سمائك الأبدية ، أي جنون تسمح به يستشري فوق الأرض وكيف تقبل الملائكة الكرام ان يقتل المستقبل ويدنس. الحاضر وتتمادى الشياطين في زرع ألأشباح في كل ألأمكنة ، حتى في دورات المياه النسوية

رائحة نفاذة كانت تزحف الى أنفي لتتسلل الى رئتي وأصوات خبيثة تصر على ان تجتاحني ، كان ذلك يضايقني وشعرت اني أختنق ،حركت رأسي ولكن عيناي رفضتا ان تنفتحا

قال صوت نسائي انه يصحو، رجاء استدعي الدكتور هيثم

ببطء كنت أستوعب المكان ، كنت ممدا على ألأرض ، تحتي شرشرف ملطخ بالدم وعند رأسي وسادة رائحتها عطنة ، كفي مغروز فيها إبرة المغذي ، يداي عاجزتان عن الحركة وقد سمح ذلك لسرب من الذباب الصلف ان يستقر على وجهي ،لم يكن يطن لأنه لايحتاج الى الطيران ، كما لم يكن يتخاصم فالغنيمة كافية

قال الدكتور هيثم : هل تعتقد ان حالتك تسمح للشرطة بأخذ أقوالك ؟

:لا..... لاتمنع

كان الشرطي الشاب الذي يكتب ألإفادة لطيفا ولكن الملازم الذي كان يقوده برما فالرائحة ازدادت وبدأت اسراب الذباب تشكل عدوا حقيقيا للجميع وليس للمرضى فقط ، فيما كانت بضع قطط تثير ضوضاء وهي تنشب أظفارها بعضها ببعض في الممر المظلم، المصباح الوحيد كان في الردهة التي تضم أربعة أسرة عليها مرضى صامتين فيما تمدد على الأرض ستة بما فيهم انا

:اسمك ؟

:سمير قاسم

:عمرك؟

:لا أدري

:لنقل ثلاثا وعشرين ،عملك ؟

:أسير عند الشيخ عبد الله

:أعني اين كنت تعمل ؟

أشرت الى جيبي ، مد الشرطي يده ليخرج هوية نقابة الصحفيين

:سيدي ، ألأخ صحفي

انتبه الضابط وعدل من جلسته اللامبالية والمستفزة

:استاذ سمير ، هل يمكن أن تخبرنا باختصار شديد عما حصل ، نحن نقدر حالتك كما اني شخصيا أحترم صحيفتكم

شعرت وانا اخبره بتتابع الأحداث بإعياء شديد

قال : لابأس نأتي بوقت آخر ولكن هل تريد أن نتصل بالصحيفة او بأية جهة أخرى؟

لم أجبه فقد عدت ثانية الى الغيبوبة

كانت السما صافية الزرقة ودجلة تظللها اشجار زاهية الخضرة ومئات العصافير الملونة تتقافز تملؤ الجو بوشوشة حلوة وهي تقبل بعضها البعض بمناقيرها الوردية ، دجلة فرحة وماؤها يلصف ابيضا يشرب الضوء الفضي المنسكب من عدة اقمار تتبادل اماكنها بشيء من الخفة ،

ولكن البشر الجالسين على الضفة ألأخرى كانوا غارقين بحزن محى ملامحهم فبدوا وكأنهم نسخ مكررة من المرمر الرصاصي الباهت

قال صوت انثوي : كيف هو ألآن يادكتور ؟

رد صوت رجالي هادئ : لابأس، انه يتحسن فقد تجاوز مرحلة الخطر

قال ابي : شكرا لله

وسقطت دمعتان وحيدتان ،انحدرتا ببطء على خديه وتاهتا في الغضون المبكرة ، لم أشاهد ابي يبكي ، قال إن ليالي الحسرة والوحدة جففت مآقيه،

قالت وداد : أعتقد أن من الضروري نقله الى المستشفى العسكري

قال الدكتور : براحتكم ان أمكنكم ذلك

كف وداد كان يمسك بيدي التي ترفض الحركة ، كنت لاأزال أحس بحرارة كفها ، كان تأكيدا على اني مازلت أعيش

ببطء بدأت حالتي تتحسن ، استطعت ان احرك يدي وأن أقرأ ولكني لم أستطع الوقوف فألأرجل لاتستجيب للعلاج ، قال الدكتور ليس باستطاعتي الجزم بالنتيجة ولكن ألإيمان قد يكون علاجا وكذلك الثقة بالنفس ، قلت له كان الإيمان بريئا وبسيطا ولكن الأشباح حولته الى وحش بأظافر قاسية وانياب قاتلة اما الثقة فقد قتلها الشيخ عبد الله

ينظر إلي والدي بحسرة ،كان يريد أحفادا يفخر بهم وانا ألآن أبعد ما يكون لأحقق امنياته ، قالت وداد انها ستقف الى جانبي، قلت لها لاتشغلي نفسك ، قد أنفع ان أستمر في الدراسة وان أكتب للصحيفة ولكني لا أنفع ان أكون زوجا،

بكت بحرقة ولكن أباها سحبها ببطء وبرقة وهو يتمتم ، قضاء الله الذي لامرد له ، ما أفكر به الآن وبجدية هو ان اقنع والدي بالزواج ،سأجد له الزوجة ، الحياة يجب ان تستمر ولكن باشكال مختلفة.

قلت لفوزي سيكون مقالي جاهزا كل سبت ، فقط ابعث أحدا لأستلامه ، قال بمواساة وتعاطف ،سيكون دائما على الصفحة ألأولى ، عليك ان تكون أكثر تفاؤلا يابطل. ، قلت له قد لاأكون بطلا ولكني سأظل رجلا أفي بالتزاماتي على ألأقل

قطاري يتوقف اليوم بمحطة رئيسة ، وتطلعات روحي كحلم يهّوم فوق دجلة ويرسم لي أملا آخرا كعصفور الكناري ألأصفر ، صغير ولكنه يغرد للآخرين